غرفة ٦٠٨

اســـم العمـــل : غرفة ٦٠٨
النــــــوع : متوالية قصصية
تـــأليف : سوزان الشورى
تصـميم الغـلاف : عبدالحكيم صالح
إخــراج داخلــي : عبدالقادر فايز الهندي
الطباعـــة : اتيليه تاتش – المحروسة
الناشـــر : الدار للنشر والتوزيع
المـدير العـام : محمد صلاح مراد
تليفـــون : ٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريـد الإلكترونـي : eddar_press@yahoo.com
فـيس بـوك : www.facebook.com/eldarpublish
رقـم الإيـداع : ٢٠١٦/٥٢٢٧
التـرقيم الـدولي : I.S.B.N.:- 978-977-702-126-5

تكملة لأهداف الدار للنشر والتوزيع ورؤيتها لتكون في المقدمة لإثراء المجتمع المصري وإنارة الطريق وتقديم رسالة وتقديم المبشر والمتميز من الشباب الجديد الذي هو أمل لهذا الشعب.

تم التوصل إلى بروتوكول تعاون بين دار (الدار) للنشر وجماعة (إضافة) الثقافية في إطار جهودهما المتصلة في سبيل دعم الموهوبين من الشباب المصري أعضاء جماعة (إضافة) في مجال الأدب للوصول إلى جيل من الكتاب المبدعين المتحققين يساهمون في إثراء الوسط الثقافي المصري.

٢٠١٦

غرفة ٦٠٨

متوالية قصصية

سوزان الشورى

الدار للنشر والتوزيع
إضافة

٢٠١٦

إهـــداء

لهذا الغريب الرابض هناك تاركنى لهاروت وماروت؛ يعلمانى ما أفرق به بين الـ(هناك) وكافِه فيصير (هنا) خالصاً لي وله.

خربشات انقطع عنها التيار

شئ ما فى هذا الصباح.. شئ يبحث عنى أو أبحث عنه.. أتساءل لما لا يخط حرفه على جفنى مثلما فعل غيره من الصباحات المتعبة المهترئة قبله، لمَ يبدو عنيداً عصياً متمنعاً، أهى حاجتى إليه أم استغناؤه عني ما يمنعه؟.. لا يهم فعلى أية حال هو آتٍ آت سواء رحَلت أو بقَيت.. لن أستجديه شيئا؛ يكفينى حلم الليلة المعبأ برائحة قريتى.

على صوت الهاتف أفيق من شرودي، تذكرنى صديقتى على الطرف الآخر بموعدنا في السينما صباح اليوم، تنتهى المحادثة، ابتسِم ساخرة من صباحى قائلة: لا تنظر إلى هكذا لن تأتى معى، لن تجدى توسلاتك، لن أضعف أمامها مرة أخري.. حسناً لا تبك.. أضعَف أنا أمام الدموع.. جهز نفسك، ارتدى حلة أنيقة تليق باصطحابك لفتاة لم ترتد السينما منذ ما يزيد عن سبعة أعوام، لكن ليس قبل أن تَعِدُنى ألا تُزعِجنى كسابقيك، ولا تنس أن تترك حُلم الأمس تحت وسادتى وإياك أن تعبث به قبل أن آذن لكما.

ارتديت ملابسي، وكعادة إمرأة تغار على صباحاتها خبأت صباحى بعناية في حقيبتى قبل أن أذهب. الفيلم بعنوان: "interstellar" تدور أحداثه حول السفر في الفضاء، التغييرات

النسبية للزمن، نسبية الحياة بل ونسبية الموت، غريزة البقاء ورسائل كوبر البطل لابنته من البعد الخامس، إدراك الابنة للزمكان، ولا محدودية النفس البشرية، العرض كان شيقاً حقاً.

"آه! هذا ما كنت أخافه" هكذا قلت لنفسي عندما شعرت بوخزات صباحى، وشتتنى همهماته عن متابعة الفيلم، فتحت الحقيبة لأكمم فاه، فعاجلنى بقذف لحن القرية في أذنى: "قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة"، كان يدندن بها بينما تعرض الشاشة الذكية في يده مشهداً قمت ببطولته مع صغيري ذي الست سنوات، عندما طلب مني أن أخرج معه للشرفة، فاستجبت بعد إلحاح، وقفنا مستندين إلي سور الشرفة، كنت شاردة، بينما كان هو في قمة نشوته، حين رأى حافلة مدرسته تعيد طلابها إلي البيوت، مشهداً كان هو بطله بالأمس والآن يكتفي بمشاهدته من بعيد، فقد كان مريضاً يومها فلم يذهب، بعدها أطلق العنان لخياله عندما شاهد بعض السُحب، بدأ يشبهها بأبطال أفلامه الكارتونية، ثم عاد إلى الأرض نظر إلى الحديقة القريبة، فأخذ يتخيل أشكالاً

لحيوانات من خطوط السماد المبعثرة وألعاب الأطفال الملونة وبعض المقاعد المقلوبة، فهذا أسد وذلك حصان وتلك سلحفاة.

مللت الوقفة كما ملّ الشرود مني فطلبت منه الدخول، لم أستجب لإلحاحه بالبقاء، حتى استسلم لطلبي حزيناً بعد أن ضغط بسبابته منتصف سور الشرفة صائحاً: "ستووووب محدش يتحرك" ثم نظر إلى دهشتى مفسراً صيحته تلك قائلاً: يا ريت يا ماما كان فيه زرار في السور دا زي اللي في اليوتيوب ندوس عليه يعمل"pause"

دلفنا إلى الغرفة، فإذا به ينظر إلى بابها النصف مفتوح، فيرى عليه ظل الستارة مع المصباح فيشير في براءة قائلاً: بصي يا ماما(مشيرا إلى الظل) دى شبه علامة الاستفهام. علامة استفهام؟ شكراً يا صغيري، ربما أبدو في حاجة للمزيد منها بعد أن ألقتنى كلماتك في مرمى بلا عوارض لأسئلة بلا نهاية ولا إجابة:

هل حقا يستوعب ذلك الصغير مفهوم الزمن كما بدا لى؟
كيف تمنى أن يوقِف اللحظة حتى لا يفوته حدَثُها؟

من أين له ذلك اليقين بأن الحياة ستسير دون أن تنتظر متابعته؟ كيف ربط بين متابعته و بين الزمان و المكان، بين اللحظة والحدث؟

هل نعيش الزمن؟ أم يعيشنا الزمن؟

هل تمنحنا الحياة أعماراً؟ أم تسرق الأعمار منا الحياة؟

هل الموت هو النهاية أم الحياة هى النهاية؟

هل يأتى الموت عند النهاية؟ أم تأتى النهاية عند الموت؟

هل نعيش لأننا سنموت؟! أم نموت لأننا سنعيش؟

هل ننتهي لأننا بدأنا؟ أم نبدأ لأننا سننتهي؟

ما الفرق بين الخوف والقلق؟

هل يخيفنا القلق؟ أم يقلقنا الخوف؟

هل يضعفنا خوفنا؟ أم يخيفنا ضعفنا؟

هل إدراك الضعف خوف؟ أم أن إدراك الخوف هو الضعف؟

حسنا.. انتهى العرض –أو العرضان إن صح التعبير– دون أن تنتهى علامات الاستفهام عن إحراز أهدافها في مرماي، "يا لك من صباح خائن لعوب" قُلت بلا صوت عدت للمنزل، مضى النهار كعادته تاركاً لي صباحه، لتدثره حروفي على صفحة جديدة في دفتري؛ كما اعتدت أن أفعل كل مساء، تظاهرت بالتعب والنعاس أمامه محاولةً الإفلات منه؛ لتأجيل تدوينه لغد قريب، فأبى صباحى الخبيث عليّ إلا أن أكتبه الآن، ربما لأنه قرأ رغبتى في تضليل خوفي بين السطور بعد أن ينام الصباح؛ فتوجس من حرفي خيفة أن يخدعه مثلما فعل مع بعض الصباحات قبله فينكر من الأصل مروره، تماما كما أفعل كلما مات عزيز لدي، أتصرف بلامبالاة، حتى إذا انصرفت جموع المعزِّين، ألتقط هاتفى وأتصل بفقيدي –بالطبع لن يرد– فأُطَمئِن نفسي، أختلق له الأعذار، فربما كان مشغولاً أو نائماً أو ربما لم يسمع صوت الهاتف، فأذهب لفراشي مطمئنة، أظل هكذا أدور فى سواقى الإنكار، حتى يرفع صباح قاس الغمامة عن عينى، ويتركنى وحدى في مواجهة الحقيقة.. الخوف.. خوفي.. ذلك الخوف من الضياع، الخوف من اللامحدود، الضياع في اللانهاية، فأنا أحب مشاهدة البحر فقط وأنا على الشاطئ، يأخذني جمال السماء فقط بينما أقف على الأرض.

أكـره الإبحـار والطيـران، أكتـب نهايـة قصصـي قبـل بـدايتها. أحسب صباحي أيضا يعلم أنني قد انتابنى شعور بالفزع في مشهد الشرفة، خبأته خلف دهشة مصطنعة من كلماته مصحوبة بفخر زائف مثلي.

نظرت حانقة في عينى صباحي الوغد وقلت لـه: حسناً يا هذا، أعرف أنك تعرف، ربما أيضاً وشى لك صباح قديم بسر فزعى، أخبرك أننى حين كنت في نفس عمر طفلي الآن تمنيت نفس أمنيته، تمنيت أن أستطيع إيقاف الزمن عند مشهد التجمع العائلي الكبير في منزلنا، عند رائحة زهور برتقال القرية في الربيع، عند الخروج المحرم في وقت القيلولة صيفاً بينما الكبار نائمون، وشتاء حين تفوح رائحة العناق بين النار وقلوب الذرة الجافة، تعبق الغروب مراودة البرد عن نفسه.

آهٍ يا صغيري لقد أعدت لي الزمان والمكان، لماذا لا أفخر بك بدلا من أن أفزع؟ أفخر لأنك أدركت بقلبك الزمكان، و قرأت رسائل البعد الخامس، أفخر لأنك يوما ما ستكون مثلي تماماً، أكاد أراك الآن بينما تتمنى التحكم بالزمن ذهاباً و إياباً، أراك كذلك و أنت تطارد حلمك أينما كان فتمسك بتلابيبه فلا يملك الفرار منك.. مثلي تماما.

مثلي تماما؟

وأي مدعاة للفخر في ذلك!

لا يا صغيري!

يجب أن أوقف تلك المسرحية الآن، يجب أن أسرق الزمن من أحداثها، حتى لا أراك يوماً مثلي، تسبقك المواعيد إلى اللقاء، تنتهك الأفكار جسد عقلك، يغتصب الحدث ذاكرتك، يباغت الحرف كلماتك فيحيل الحلم حملاً والأمل ألماً، والعدم دمعا. صرخت في صباحي: سأقتلك يا صباحي اللدود أنت وكل الصباحات أمثالك الآن!

فرد الصباح بلهجة مسرحية ساخرة: يا لمكرك! تراوغينني تارة، تتدللين عليّ تارة، ثم تدَّعين القوة تارة أخرى لتخدعينني كما خدعت من سبقونى، هيهات هيهات، أنا الملك اليوم، أنا عالم الأسرار هنا، أنا الزمن وأنت مجرد فعل من أفعالى أصرفه كما أشاء، أنا من يجعلك فاعلا، مفعولا به، اسم فاعل إن شئت، أنا من يضع على آخرك ما شئت من حركات: فتحة، ضمة، كسرة، أو سكونا.

قالها وهو يشير بيديه إلى اعتراضي: أن اصمت واقترِب. لم أكترث له، تركته ماضية وأنا أبدو كساق معوجة تأمل أن تستقيم ظلالها، ركض خلفي، أمسك بذراعي، طوانى بعناية، وضعنى في مظروف، بلا طابع بريد ولا جهة وصول، لثم لاصق المظروف؛ فأغلقه بإحكام قبل أن يلقي به في حقيبته، معلقاً إياها في كتفه، ماضياً يترنم بلحن القرية: "قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة".

فأر المسجد

في ذلك المقهى الفرنسي الطلة، مهلهل الأركان – بفعل فاعل – المكتوب على لافتته since 1951

كانت هي هناك، سيدة جميلة بيضاء البشرة، حرة الملامح دقيقتها، تبدو في نهاية عقدها الخامس، رغم ما حاولت إخفاءه، بصبغة شعرها، و ملابسها الرياضية، وقوامها الممشوق، يزخر مظهرها بحب الحياة بينما تشى عيناها باشتهاء الموت، هناك في المقابل تماما جلسَتْ، مقابلي ومقابل المقهى، تتحدى هي الحياة و يتحدى هو الموت.. يهلهل هو أركانه ليستمر، وتجدد هى أركانها لتنتهي، يعتق هو نبيذه ليرضي الزبائن وتصنعه هى طازجا لتنفرهم، يرسم هو ملامح الموت يستدعى به الحياة، وتعبث هى بأركان الحياة تستدعى بها موتاً في ظرف ما خال من الزمان والمكان تعرفت عليها، جلست أنا علي استحياء، وجلست هى تمضغ صمتها بتأن، تتذوق حروفه بعناية قبل أن تبتلعها برشفة من قهوتها، أشعلت سيجارتها الأولي، نفثت دخانها علي مهل و باحتراف، صنعت منه دوائر متداخلة متتابعة، كلٌ تدور في مدارها؛ لتفسح المجال لصاحبتها، تعجبت لمهارتها تماما مثلما تعجبت من تلك الخيوط الدخانية التى نفثتها بغتة فجذبتها الدوائر الساذجة إلى أفلاكها، جاهلة أنها ستهتك مداراتها في خبث؛ لتهده إلى صراطها المستقيم، ثم تفنيها في اللاشئ.

ظلت هكذا تمضغ، تتذوق، تبتلع، ترشف، تنفث، ترسم وأنا أنظر، أتابع، أتعجب، ثم تضيع كلتانا في اللاشئ.

مرة أخرى صنعت دوائرها، ثم توقفت فجأة وأشارت إلى الدائرة الصغري و أقربهن إلي المركز قائلة: أتعلمين؟ لو لم أكن أدور يومها تلك الدائرة الضيقة لكنت اليوم شيئاً آخر.. صمتت للحظات تستنشق الندم قبل أن تزفره مكملَة: وقتها كنت طفلة إلا أنني استطعت قراءة القرآن و الإنجيل، بدأت في طرح تساؤلاتي على الكبار دون خجل أو مواربة، إختلفت ردود أفعالهم ما بين اللاإجابة و الشفقة علي من الهوس و الجنون وفي أفضل الأحوال كانت الإجابة: غدا ستعلمين فلا تزالين صغيرة. كان أبي شديد الخوف عليَّ، حتي أنه عزلني عن الجميع، إذا تألمت جاء بالطبيب إلى المنزل، إذا سألت جاء بالمدرس، هكذا حتى احترف توصيل كل طلباتى إلى المنزل، لكنه أخيرا سمح لي بمغادرة غربتي و الذهاب لحضور دروس المسجد، أحسبه ما فعل إلا ليريح رأسه من فلسفتى الفارغة وأسئلتي اللامتناهية، فطنت إلى ذلك و قبلت الصفقة اللامباشرة، حسنا سأريحك وتريحني من دائرتي الصغيرة.

في إحدى المرات بينما أنا في طريقي للمسجد، لاحقني طفل يكبرني بما لا يزيد عن الثلاثة أعوام، أرعبتني ملامحه الجائعة، فتظاهرت قليلا أنني لا أراه حتى تقلصت المسافة بيننا فسمعت لهاثه يضمر شراً، ربما ينوي ضربي لشئ في نفسه، أجبرني ذعر طفولتي علي الركض حتى وصلت إلى مسجدى، تنفست الصعداء.. قبل أن أراه يخلع نعليه ليدخل أيضا. فلُمت نفسي كثيرا لسوء ظني، فكيف لزائر بيت الله أن يضربني هناك!، كم أنا شريرة! لابد وأنه جاء للدرس مثلي، وركض حين ركضت ظنا منه أنه تأخر مثلي. نظرت إليه ابتسم في خجل مُعتذر. بدأ الدرس بعد صلاة المغرب وكالعادة كنت أجلس دائما في أضيق الحلقات وأقربها للمركز، يجلس هو خلفي في الدائرة، فجأة انقطعت الكهرباء، أظلم بيت الله تماما، جلس الكل ثابتا في مكانه، تيبست أنا في مكاني، احتضن بذراعيَّ ركبتيَّ، حتى شعرت بشئ حي يصعد من مؤخرتى على ظهري، تسمرت للحظات لأستوعب ما يجري، قبل أن أنتفض صارخة: فاااااااااااااار.

تشتت الدوائر كلها، كأنما سحب الفأر أفلاكها إلى اللاشئ تماما مثلما تفعل خيوط سيجارتي، هرج و مرج لدقيقة، قبل أن تشعل المصابيح الغازية، فيظهر اللا "فأر " و يلومني الجميع على

ذعري غير المبرر، فكيف للفأر أن يصل لأضيق الحلقات دون المرور بأوسعها أولاً ، أقسم لهم أنني شعرت به على جسدي.. لا أحد يصدق.. نظرت إلى ذلك الولد أستجديه أن يخبرهم صدقي فالفأر كان بيني وبينه، لابد أنه شعر بوجوده مثلى، فينظر إلى مبتسماً في خبث منتصر، يقول ضاحكاً رافعا يده محركا أصابعها: فأر! لم يكن هناك فئران ربما أحضرتي أنتِ فأرك معِك. رددت خلفه همسا: أحض..رت فأر..ك م..ع...ك! كأنما أتهجى حروفا نسيتها، مضت عليّ تلك اللحظة دهراً، حتى أستوعب أن تلك اليد الصغيرة كانت هى الفأر الذي قطع كل الدوائر، اعتذرت للجميع عن لاشئ لملمت أطراف ثوبي المرقعة بلعنات ضيوف الله، نفضتها جيدا من بقايا خطيئتي الأولى، غادرت بيت الله إلى غير رجعة.. مضيت أتمتم: كان أبي محقا في خوفه لكن إن كان المقابل هو العودة لأفلاك بلا خطايا، فلست ملزمة بتسديد الفاتورة، فقط سأستبدل المدار بآخر أستطيع فيه انتقاء خطيئتى.. لن أعود لبيت الله، ولا لبيت أبى، أقصد لن أخبره.. لن أخبر أبي..

نظَرت "غريبتى الصديقة" إليّ بعدما انتهت وأفرغت عليَّ مصهور ذكراها الملتهبة، لا تدري أنها أزالت إطار المشهد من جدار ذاكرتها لتَلقِهِ ناحيتى، ولا أدري لمَ التقطته لأعلقه على جداري!

نهضت من مكانى ابتسَمت لصمتها، ودعتها ثم احتضنت الإطار وانصرفت أردد لحن القرية: "قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة".

توأمي حجر

تركت غريبتى الصديقة ومضيت معي لحن القرية، إطار لوحة ذكراها، بخلفية سوداء الحواف تتدرج للرماي في منتصفها، يظهر مسجدها في ركن بعيد من الصورة على بابه يقف فأر المسجد منتشياً ملوحا بكفه الصغير، كان الفأر قريباً جداً، فبدا أضخم من المسجد بينما بقيت كفه صغيرة، تظهر في منتصفها نقطة حمراء اللون.

حملت لوحتها بعناية، طفت بها بين حجرات الذاكرة، لأختار لها مكانا يناسبها، أتعبنى التفكير، فكل الحجرات متشابهة الملامح، مخدَّشة الجدران، متسخة الأرضية، مثقوبة الأبواب، مكسرة النوافذ بفعل عواصف ترابية عنيفة، كادت أن تمزق اللوحة، حتى أوشكت أنا أن أتركها لأرحل يائسة، حتى وجدتها هناك سلسلة صدئة مترية معلق فيها كف أبيض صغير وعلى جانبه نقطة فيروزية اللون، ملقاة على سرير صغير مهلهل، في حجرة علوية لفيلا فخمة، تطل على شاطئ سكندري، حملت السلسلة، نفضت عنها ترابها، ألصقتها علي اللوحة فبدت كأنها تتدلي من عنق فأرها، علقت اللوحة بعناية، صرت أتأملها وتتأملنى، تحكينى وأحكى لها قصة السلسلة ذات الكف الصغير، قالت اللوحة: كانت هناك طفلة في عامها الحادي عشر، تنام بجانب طفلة في نفس عمرها، حديثتا التعرف على بعضهما، إلا أن تلك الحداثة لا تمنع مشاركة

الفراش، ففراش الطفولة يتسع للجميع، وبرائتها لا تتوجس من الغرباء.

أطفأ الكبار نور الغرفة، وأغلقوا بابها، امتَثَلَت الصغيرة للأوامر بضرورة النوم مبكرا، بدا لها أن شريكتها في الفراش قد فعلت مثلها لكنها شعرت بكفها الصغير يتململ، تشعر به قَلِقاً بجانبها، حتى هدأ قلقه على جسدها، بالتحديد في مكان مِنهُ محرم عليها هى نفسها، يتحسسه و يعبث به، ثم يحمل كفها ليضعه في نفس المكان من جسد صاحبة الكف ويحركه رغماً عنه.

لا تعرف سر استسلامها، ولا تتذكر كم مضى من الوقت لتقنع جفنيها بإرخاء ستارهما على ما تبقي لها من طفولة كهلة جعَّد الكف بشرتها، لا تعلم أيضا سرا لهذا الفضول الذي دفعها لتحسُس جسدها مرات ومرات باحثة عن ما بحث عنه الكف الصغير بعد الحادث بأيام قليلة، لكنها كانت تعلم سر لومها لنفسها بعدما أخبرت أمها بما حدث، فأي سذاجة تلك التي تدفعك لتحكي للكبار أمرا؟ وأنت تعلم جيدا أنهم سيستمرون في إطفاء الأنوار وغلق الأبواب ولن يزيد في الأمر شيئا سوى أنهم سيضعون كاميرات المراقبة السرية في غرفتك ويثقبون الباب لعين سحرية.

أفاقت من شرودها علي صوت تخبط الإطار بالحائط، صرير الأبواب، تخبط النوافذ، تجري مفزوعة في اتجاه باب الغرفة، تحاول فتحه، لتجد سبابتيها مكبلتين بكفين صغيرتين تدلي منهما طفل.. ابنها على ما يبدو، تحتضنه، تحاول التخلص من كفيه، قائلة: الآن عرفت لماذا كنت أتحاشى النظر إلى كفيك الصغيرتين، عذرا يا صغيري فلم أعد أتحمل مزيدا من الخدوش، فالكفوف الصغيرة لا تجيد استخدام مقلمة الأظافر.

أغلَقَتْ الباب، ركضَت في الطرقات الضيقة، تركض معها ظلالها على الجانبين، لم يوقفها سوى صوت لنحيب، تتبعت مصدره بين الغرف حتى وجدته، على باب الغرفة المرصع بالعيون السحرية، وقفت تنظر من إحداها، رأت فتاة أخرى تنتحب، تمسك بزجاجة كروية شفافة لها فوهة شديدة الضيق، تعبئ بها ما سقط من دموعها، تقول الفتاة: يا إلهى! متى سيأتى اليوم الذي أرتدي فيه ثوبا بلا خطيئة، أنا لا أشترط فيه لوناً ولا موديل، جلُ ما أريد هو أن أحيِّكه لنفسي، أو على الأقل يتركوننى أشارك في حياكته معهم، ففي قريتى يتعاون الجميع و يتقاسمون كل شئ إلا الخطايا، يجيدون حياكتها، ثم يهدوننى الثوب وحدي.

في هذا الصباح بَكَيتْ، حين طلبت منى أمي الذهاب لشراء بعض الأغراض، فزِعت هى وسألتنى: مالك؟

تلكأت قليلا في الإجابة، ثم أخبرتها أننى لا أريد الخروج خشية نظرات أولاد القرية، التى تستفقد ملامح جسدي حديثة الظهور، قلتها وأنا أختبئ في حضنها أرتعش خجلاً، فما كان منها إلا أن لفظنى حضنها ثمَّ ظلت تنهرنى، تلومنى على مظهري، تتهمنى بتعمد لفت الأنظار، واستعراض أنثاي الجديدة التى استضافها جسدى رغماً عنى، كلمات عديدة ما بين اللوم والإهانة ذيَّلتها بقرار حاسم يمنع خروجي من المنزل إلا في الضرورة القصوى وبشرط ارتداء الجلباب والخمار.

أى ظلم هذا! وأى أم تلك! وأى غباء أصابنى كي أخبر الكبار سراً جديداً!

أي سذاجة تجعلنى أظن أنهم سيزيلون كاميراتهم لمجرد ارتدائي لقطعة جديدة من الملابس الداخلية لا يرتديها سوى الكبار!

أي غباء أصابنى لأخبرها، وهى التى لم تتورع عن إحراجي كلما رأتنى ألعب قائلةً: بتلعبي يا نُغة! بصي ف عبك ياختى.

لم أكن أعرف حينها من أنا! كبيرة أم صغيرة !

أبدو مثل عسكري الشطرنج يقف مجبراً على خانته البيضاء، حَرَّكَتهُ يد خفية إلى الخانة السوداء، ليطيح به المنافس خارج اللوحة..

تباً لهذا الجسد اللعين الذي تلبَّسنى، فألقانى خارج لعبة، ليتنى حتى اخترت أن ألعبها.. الحياة.

أنهت كلماتها، أحضرت طرحة شيفون مستطيلة، خلعت ملابسها ثم أعادت ارتدائها بعدما ربطت صدرها جيداً بالطرحة ومسدت بروزاته الجديدة، توجهت إلى المرآة وقفت تستفقد البروز حتى اطمئنت لاختفائه، تمتمت في مرارة : ها قد استعدت السيطرة، ثم رددت أبيات درويش: ولا تتطلع إلى توأمي حَجَل على صدرها.. وانتظرها قبل أن تقول: فلتتلو يا درويشي قصيدة جديدة لفتاتك التي أحالوا توأمى الحجل على صدرها لتوأمى حجر، قبل أن تئدهما، فمِن الآن لن يتطلع إليها فئران القرية ولا أحد سينتظرها، قالت ثم انحنت فلملمت آخر الدموع المتساقطة على الأرض، أغلقت الزجاجة جيدا، رجتها بعنف، ثم فتحتها ثانية، سكبتها على الظل الملقى خلفها، لتملأه بفراغ جديد، فتحت نافذتها المطلة على الطريق الأسفلتى، ألقت منها بالزجاجة الفارغة، استندت بذراعيها

على السور، تنتظر صوت ارتطامها، فلم تسمع سوى أصداء لحن القرية :"قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة"

أمشير يهدأ أحيانا

يبدو أن المقهى اعتادنا، أنا وغريبتى الصديقة، أجلس الآن في انتظارها بلا موعد –كعادتنا–، أشعر بوخزات لحن القرية تدفعنى لإفساح مكان له بجانبي، يبدو أنه أيضا اعتاد المجئ بلا موعد.

أتابع خطوات النادل حول الطاولات، رائحة القهوة تختلط برائحة القرية، لحن القرية يراود الصمت عن نفسه، فيتردد مغتصبا سلامى النفسي، تخبط الزجاجات علي الأرفف يشبه تخبط رسائل الماضي على طاولات الذاكرة، رسائل الماضي أيضا تنتظر معنا الـ "لاموعد".

يرن هاتفي المحمول، أتطلع إلى رقم المتصل، أرقاماً لا أعرفها بقدر ما أحفظها، تلتقط أذنى الهاتف بفعل لا إرادي، على الطرف الآخر يأتى صوتها يبدو دائما مثل الأرقام، محفوظ لا أعرفه جيداً، كان كذلك دائما صوت أمي، تبادلنا التحيات والسؤال عن الأحوال، أحوالنا الشخصية وأحوال الطقس الشخصية أيضا، فالطقس لم يعد كما كان عامًّاً محدداً، باتت أحواله شخصية إلى حد كبير.

قالت أمي: الطقس صار غريبا علينا، أو ربما صرنا نحن الغرباء، يبدو أننا بحاجة لتغيير أمثال القدماء الشعبية عن الطقس، ومواسم الزراعة، صار كل شئ مختلف متغير، له منَّا سوى أمشير، لازال

يعتزُّ بجنونهِ، لا ثابت فيه سوى إصراره على التقلب، لا زال يعلو و يهبط كمنحنيات رسم القلب، مثلُك تماماً

مثلي تماماً؟ تسائلت أنا.

أجابت: نعم مثلك تماما، يوم ميلادك، كان عصيباً بما يكفي، رياح وعواصف، كأن أمشير يعلن عن قدومه أيضاً، حتى أسقط شجرة معمرة ضخمة، قطع بها طريقنا إلى المستشفي، وطريقك إلى الحياة، هكذا هم دائما الأشباه تتنافر، وتغار من بعضها.

أمشير يغار مني أنا؟ تساءَلْت ضاحكة.

انتهت منى الكلمات بعدها، وبقي صوتها يتردد بلا تردد، لا زال أجوفاً، محفوظا، ولا زلت لا أعرفه، انتهي حديثنا، لم تنتهى آثاره بداخلى، قطعت الشجرة طريق النهاية.

لم تكن تلك المرة الأولى التى تحكي فيها أمي أسطورة ميلادى، أحفظ تلك الأسطورة كما تحفظنى، لكن كلتانا لا تفهم صاحبتها، كأمي ورقم هاتفها، صوتها ولحن القرية، أنا وأمشير وأسطورة الميلاد، الجميع محفوظ غير مفهوم.

قطع خيوط صمتى وجه غريبتى الصديقة القادم من بعيد، تسقط الشجرة لتقطع طريقها أيضاً، على الساق الساقطة رأيت إنانا تتمدد في ثوب أبيض ناصع غير مبالية ببقع الدم التى لوثته، بينما خلعت سِخمِت رأسها وطوحتها في اللاشئ قبل أن تطوف حول الشجرة، حَتشْبِسُوت ألقت بقُفَّازها فلم تَعُدُ مثلي تخاف الكفوف، أما إيزيس فكانت تقطف أوراق الشجرة، كاشفة وجه أوزوريس، تاركةً حورس يبكي بلا دموع، لتأتي ماعت حانقة عليها فتحمل حورس و تهدهده، أما هناك عند جذور الشجرة كانت طفلتى – المولودة في نفس يوم ميلادي– تبحث مع جلجامش عن أسباب خلود جديد.

يتوقف المشهد فجأة، ينظر الجميع إلى السماء، حيث يظهر أبوللو معتلياً صهوة بجعته الطائرة، تتساقط ريشاتها على الجميع، حاملة رائحة الحياة، و أنغام لحن القرية : "قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة".

شـــــام

هل تؤمن بالحب من أول نظرة ؟

إن كانت إجابتك بالنفي، فلن تملك إلا إعادة النظر في كل معتقداتك بعدما تراها أو بمعنى أصح بعدما تستعيد وعيك الذي سيدور بك في فلك وجهها المستدير، محكم الاستدارة، قبل أن تقضي عليكما رقة ملامحها، نظراتها، كلماتها، عيناها، صوتها، فمها، وأخيرا فسيقوم شعرها بصفع كل معايير الجمال التى عرفتها، ويرديها قتيلة بضربة قاضية.

لسبب ما كانت ترافق غريبتى الصديقة أحياناً، فأصبحت أراها بشكل شبه منتظم، تلعب، تضحك، تجري وشعرها يجاهد ليلحق بها.

أسود ناعم منسدل يغطي كامل ظهرها تتركه دائما حراً لا تكبله بأى حلي أو شرائط كأنها تأبى إلا أن يكون حراً مثلها.

ما أجملك يا صغيرتي! ما أجملك يا شام!

شام كان اسم صغيرتي، التى رأيتها اليوم حزينة، مكسورة، لا تلعب بنفس النشاط، لا تجري ولا شئ خلفها يحاول اللحاق بها.

تغيرت تماما حتى إن صديقاتها الصغيرات في المقهى لم يستطعن التعرف عليها.

من فعل بك ذلك! من قص شعرك!

تساءلت أنا فأجابت صغيرتي ذات الأربع سنوات بابتسامة حزينة

نظرت لغريبتي لأعرف السبب، من بين كلمات كثيرة قالتها استطعت الوصول للسبب لقد كان شعرها الحر مزعجاً كثيرا لذويها الكبار من الذكور، فهم لا يحبون هذا المظهر المتحرر نهروها كثيرا وحاولوا إجبارها كثيرا على تكبيل شعرها بالضفائر أو الحلي، لكن أمام عنادها و إصرارها الصغيرْين فشلت كل محاولات الكبار، وجدوا أن التخلص منه هو الحل الأمثل، فهذا هو العقاب الرادع لأمثالها من متحدي إرادة كل كبير، فشلوا جميعاً في إخضاعها.. في تكبيل شعراتها فأزالوها.

رغم ذلك رأيت في وجهها الحزين ملامح انتصار باهتة، قصوا لها شعرها لكنهم فشلوا في اقتصاص مبادئها، أراها راضية رغم كل شئ، فشعر قصير حر خير من طويل مكبل.

فالصغير سيكبر حتما، أما من استسلم للقيد فلن يسلاه أبدا.

عذرا يا شام، فلا أملك لك شيء.. بل لا أملك لنفسي مثقال ذرة، خذلتنا حواء منذ الأزل، حتى اللغة خذلتنا ياشام، فلا تعريف لنا فيها سوى التعريف بالإضافة، ولا مكان لنا بين الفواعل المرفوعة، نحن دائماً مفعولات بهن، تَنصْبُ أرواحنا كالقرابين تحت ذوينا الذكور.

فنحن هنا كائنات بلا حياة، بلا شيء، الجماد أوفر حظاً منها، فالجماد –على الأقل– يملك ظلاً، أما نحن فلا ظل لنا يا شام. فقط أتمنى لكي الثبات، قاومي يا شام، ارسمي ظلك، زُودي عنه بروحك.

فلقد خدعتي الآلهة يا شام، سرقتى منها سر الحياة لتهديه إلينا، فأرسلت إليك طيرها لتنهشك وتلقيك بحجارة من تكبيل لا تستلمى.. أقدمي يا شام ولا تدعيهم يصبون عليكِ لعنات لحن القرية يمحون به ظلك.

فهنا كما قال بروميثيوس: "لا أحد حر غير زيوس".. لا أحد مطلقاً.. لا أحد يا شام غير زيوس.. ولحن القرية : "قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة".

سنوبى و الطوق الأحمر

أجلس الآن على مقهانا، في انتظار اللاموعد، يأتى رجب (النادل) يسألنى عن طلبي، أطلب قهوتى المعتادة بعدما سألته عن سبب غيابه في الفترة الماضية فأخبرنى متأففاً أنه كان يمرِّض زوجته التى أتعبها الحمل كثيراً وأنه لم يفعل ذلك إلا خوفاً على جنينها، تمنيت لها الشفاء، هنئته بالمولود القادم و بزواجه الحديث، شكرنى، ابتسم في مرارة قبل أن يتمتم ببعض كلمات يشكو فيها الحياة عموماً و الزواج خصوصاً، مضى بعدها ليحضر قهوتى، وجلست أنا أتأمل المقهى، مقهى بلا سقف تحده منطقة تجارية من جهتين، ناد رياضي من الثالثة، وطريق مزدوج الاتجاه يتوسطه رصيف مُشَجَّر يفصل الطريق بينه وبين المسجد من الجهة الرابعة.

وصلت غريبتى الصديقة، حيَّتنى، جَلست فسألتها سؤالاً دون مقدمات: ما هى الحرية من وجهة نظرك؟ وقبل أن تجيب قلت لها: أرجوكي ساعدينى فاليوم لم أستطع تعريفها لصغيري، فقد كنا نشاهد سويا فيلما كارتونيا بطله كلب اسمه سنوبي أهدته صاحبته طوقاً جميلاً أحمر اللون مكافأة له على إخلاصه، هدية جميلة، لكنها جاءت في غير موعدها، فالكلب كان قد أفاق لتوه، مقرراً أن حريته أغلى من أن تباع بطعام لذيذ، حديقة جميلة يلهو بها، ولا حتى حب صاحبته وتدليلها له.

رمى في وجهها الهدية، تركها، مضى منطلقاً سعيداً بحريته، انطلقت خلفه تناديه، ترجوه أن يعود، لم يستجب، انطلق حتى اختفى.

ظلت تبحث عنه وظل يهرب منها، في طريق البحث قابَلَت الطفلة قطاً حراً سميناً، حكت له قصتها، تعاطف معها، طلبت صداقته، أهدته الطوق، تردد قليلا ثم وافق.

أخذ الطوق، لفه حول رقبته، لم يحتمل، فالطوق لا يناسب سمنته، نزعه بعنف، طوحه في الهواء ثم تركها، وهرب كسابقِه.

انطلقت هي لتبحث عن طوقها الذي طار في الهواء حتى سقط في النهر، وسار في تياره حتى اختفي هو الآخر.

بكت وبكت ثم ذهبت لحال سبيلها يئست فعادت هي الأخرى

سنوبي الآن حرا يلهو، يلعب بجوار النهر، يحدث نفسه، يتغنى بجمال الحرية انطلق وانطلق حتى تعب، لا أعرف إن كان انطلاقه أتعبه فجاع أم أن جوعه أتعبه فتوقف!

جلس حزيناً جائعاً، نادته أصوات ذكرى صاحبته، وهي تدلِّله، تحضر له طعامه، فيأكل بينما تربت هي على ظهره حتى يكتفي فتحممه و تلاعبه.

كيف هذا؟ ماذا فعلت بنفسي. هكذا حدث نفسه.

ندم على فعلته وأخذ يبكي طوقه، تمنى أن يعود الزمن فيقبل به، منعه الكبرياء من العودة، استقر في مكانه يائسا حزينا. يدعو الله أن يجعل له مخرجاً.

كانت المفاجأة عندما نظر إلى النهر فوجد طوقه كأنما يبحث عنه هو الآخر قفز سريعاً فالتقطه، أحكم وثاقه، انطلق يبحث عن صاحبته.

وجدها أو وجدته؟ لا يهم؛ ففي فرحة اللقاء و العناق الحار بينهما، لا مكان لمثل هذه الأسئلة..

عاد أو عادت لا يهم..

ما يهم هو أنني ناديت طفلي محاولة أن أشرح له أن سنوبي مخطئ، لأنه لم يختار حريتهُ، سألني عن معنى الحرية فلم أحر جوابا.

بينما أنا في انتظار إجابتها كانت أصوات قعقعة حولى تعلو تدريجيا، بدا أنه لا أحد غيري يسمعها أو على الأقل ينزعج منها فأنا الوحيدة التى كنت أتلفت حولي باحثةً عن مصدرها، فرأيت رجلاً ملتحٍ وجهه كأنه كتاب تراثِّيٌ مهترئ، يربطَه شيخ المسجد من لحيته، لم يزعجنى المشهد بقدر ما انزعجت حين اقترب الرجل من الشيخ مقبلاً يمينه، أشحت نظري عنهم لأرى رجب في طريقه إلي حاملا قهوتى فيقف فجأة يحاول جذب قدمه اليسرى وتخليصها من سلسلة حديدية حلقاتها على شكل قلب... يأتى صاحب المقهى ليخلص رجب من قيده فيقف على بعد خطوة واحدة ليجد نفسه مسلسلاً بقيده في الخزينة!، من مقهى الإنترنت المقابل ركض صاحبه لينقذ المكبلين فلم يستطع؛ حيث بدا مقيداً هو الآخر في أسطوانة مدمجة!

صرخت به إحدى زبونات المقهى في الجميع لتخاذلهم، هرولت في اتجاه المكبلون، فسقطت على وجهها فجأة عندما تعثرت في سلسلتها التي يمسك بطرفها ابنها الصغير، سيدة أخرى تكرر نفس المشهد على الطرف الآخر كان زوجها يمسك بطرف القيد، فتى صغير بكى حين أراد تحريرهم فأحكم أبوه وثاقه، وجذبه مغادرا المكان، بدا الجميع مكبلين في سلاسل متصلة منفصلة لكن لسبب ما كانوا سعداء!

ولسبب آخر كانوا يشيرون إليّ ضاحكين منى كما أضحك منهم! صرخت فيهم مستهزأة، قبل أن أفيق على نقرات غريبتى على الطاولة قائلة : أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أى كذلك؟ سألت أنا.

-يبدو أنك كنتِ شاردة

-أعتقد ذلك، سامحينى، ماذا كنتِ تقولين؟

-كنت أقول أن الحرية هى..

انقطع صوتها فجأة، حين طاردتني نظرات المسلسلين حولي، يشيرون إلى عنقي ويضحكون، نهضت مفزوعة وأنا أخفي عنقي بكلتا يديَّ، جريت إلى أقرب سيارة، تفقدت عنقي فى مرآة بابها، لأراه موثقاً على عنقي: طوق بلون لحن القرية: قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة".

حمى الماس

بعد حالة الهذيان التى أصابتنى فى المقهى، أعادتنى غريبتى الصديقة لمنزلى، أعطتنى قرص مهدئ، وضعتنى في الفراش، تركتنى لأنام، لكنه ورغم أن النوم بالنسبة لى هو مجرد قرار: قرار سفر، أقطع له تذكرة ذهاب فقط غير عابئة بموعد العودة ولا بِكَيفِيتِّهَا، فأنا لا أملك ولا أحب امتلاك قرار العودة فهو عادة يأتى بفعل فاعل –مع سبق الإصرار و الترصد– يستميت ذلك الأخير لإثنائي عن قرار السفر، الذى يفشل الطبل البلدى والإفرنجي معاً فى إثنائي عنه.

إلا أن الوضع الآن مختلف، فالفاعل هو ذلك التنين الهائج المقيم الآن فى رأسي، الذي كان يداعب أطفاله العشرة فى مرح منذ قليل، قبل أن تنتابه حالة جنونية، التهم أطفاله على إثرها ليصاب بهيستيريا؛ فيجوب هائجاً أرجاء دماغي يميناً ويساراً قبل أن يقفز قفزة هائلة طارحاً نفسه أرضاً، لِيَتَلَوّى ويتشنج كالمسوس.

أكاد أيضاً أن أسمع الآن أصوات صاخبة مزعجة، سأعرف فيما بعد أنها تخص عظامى، والتى تجرى الآن على طرقاتها آلاف الشاحنات مزدحمة متقاطرة تعبث بالطرقات، وتقوم بعمل "الغرز" و"الخمسات"، تستمتع بلعبة "التصادم" عند تقاطعات الطرق المُسماة ب "المفاصل".

لا أستطيع تمييز الأصوات القادمة من الطرقات هل تستغيث بي؟ أم أنها تصب اللعنات عليَّ لتكاسلى عن انقاذها؟

استطعت الآن رفع نسبة لا تتعدى ١٠% من ذلك الجدار الخرسانى الذى تدلى أمام عيونى منتحلاً شخصية الجفون والذى سيفشل حتماً ذلك الذي حقق رقماً قياسيا فى رفع الأثقال وسُجّل فى موسوعة جينيس فى مجرد مساعدتى على رفعه.

إنها الحمى.. ضيف ثقيل قرر بدء مراسم زيارته الرسمية لجسدى والتي جاءت دون سابق إنذار أو دعوة.

لن تجرؤ الأمم المتحدة وغير المتحدة على مجرد طلب مقابلتى؛ لإقناعى بضرورة الاستحمام أو حتى استخدام كمادات باردة لحفظ سلام جسدى ومحاولة محاصرة مستوطنات الحمى الحديثة الإنشاء به؛ فالاستحمام الآن هو الجنون بعينه.

يمر بخيالى الآن شبحاً يرتدي قناع فانديتا، يقتلع صغيرى المحموم من فراشه ليحممه غير مكترث بصراخه، ولا تثنيه توسلاته.

تباً لك أيها اللعين؟ ماذا تفعل بصغيري؟ ألا تعرف أن استحمامه الآن هو الجنون بعينه!

يرفع الشبح قناعه فإذا به "أنا" في وقت ما قبل ذلك ربما بسنوات قليلة.

أستطيع أن أزعم الآن أن مفاوضات وفود الكيتوفان والبريستافلام، نجحت فى الوصول إلى اتفاق لوقف إطلاق النار؛ هدأت على إثره حركة الشاحنات على عظامى وانتظم سيرها؛ فتوقفت مؤقتاً عن "الغرز" و"الخمسات" لكنها ما زالت تجوب طرقات عظامى جيئة و ذهاباً، كما استجاب أيضاً ذلك التنين اللزج لحقنة مهدئة ذهبت به فى غيبوبة قصيرة الأجل؛ فتوقف عن التشنج لكنه مازال ملقياً بثقله على أرض رأسي.

بعد أن دخل قرار حجرى الصحى حيز التنفيذ، مددت يدى لألتقط "تراب الماس" تلك الرواية التى قرأت بعضا منها قبل الذهاب للمقهى، وعشت فى أولى فصولها مع حنفي الزهار، سأكملها الآن مع حسين الزهار أصغر أبنائه ومن بعده حفيده طه حسين الزهار.

فى هذه الرواية ذهب حسين الزهار، ومن بعده طه فى زيارة لبعض العتاولة الذين عاثوا فى الأرض فساداً، فى أثناء الزيارة يذيب تراب الماس فى الشاى الذي سيحتسيه مضيفه، ثم يهمّ منصرفاً بعد أن يُخبر مضيفه أنه كان بطل حلمه الليلة.

يبدأ فى سرد أحداث حلم، تفسيره أن ذلك المضيف سوف يكون فى طريقه للرفيق الأعلى بعد ثلاثة شهور من تاريخ الحلم.

فى خلال هذه الشهور الثلاثة يتُّم تراب الماس تنفيذ مهمته، التى تبدأ بالالتصاق بخلايا الجسد والذوبان بها، فلا تستطيع الخلايا التعرف عليها، فيرسل المخ إشارات لخلاياه بمحاصرة هذه الأجسام الغريبة، ثم تكوين حويصلات حولها، تُظهِر الأشِعات هذه الحويصلات على هيئة أورام صغيرة، متناثرة على جدار المرئ يستحيل انتزاعها وتستحيل معها الحياة.

طه الزهار أصغر وأهم أبطال الرواية، كان صيدلانياً مثلى لعل هذا السبب هو ما دفعنى للتفكير فى علاج للتسمم بتراب الماس، تذكرت سؤالاً طريفاً من الأسئلة الشفوية فى إحدى فروع الكيمياء، كان الممتحن يداعبنا به أحياناً، فيسألنا لماذا تفور المياه الغازية عند وضع بعض السكر بها؟

الإجابة ببساطة لأن ذوبان السكر فى الماء أقوى من ذوبان غاز ثانى أكسيد الكربون؛ لذلك فعند وضعه فى المياه الغازية، يذوب فيها طارداً الغاز؛ ويظهر حدث الطرد والإحلال هذا على هيئة فوران قوى.

إذن فلأستخدم ذلك كفكرة للعلاج، لأبحث عن تراب آخر له صفات تجعله أكثر ذوباناً فى الخلايا؛ فيطرد منها تراب الماس ويحل محله.

حركة الشاحنات الآن بدأت فى التسارع تدريجيا، التنين اللزج أيضا بدأ بتحريك أطرافه، شبح فانديتا عاود الظهور ومعه رجل آخر خلقه خيالى للتو، هذا الرجل هو: (مجتمعى)، أو هكذا تخيلت اسمه.

فانديتا يحاول إقناع المدعو "مجتمعى" بتناول قرصاً مصنوعاً من تراب آخر؛ سيذوب فى خلاياه طاردا تراب الماس وأورامه، إنها فرصة مجتمعى الأخيرة لإنقاذ نفسه من موت محتم نتيجة تسممه بتراب الماس.

فانديتا يُلح والرجل يرفض، يلعن فانديتا، بل ويكاد يقتله، وأنا على وشك الجنون أتساءل: لماذا يرفض "مجتمعى" العلاج، وهو يعلم يقيناً أنه يقف على حواف الموت؟

يعلم "مجتمعى" أيضاً أن الأورام استشرت في جسده النحيل، استشرت لدرجة سيستحيل معها بقاؤه يوماً ما.

جيوش من علامات التعجب والاستفهام تسبح في رأسي الآن بقوة، أكاد أجزم أن هذه الجيوش بمقدورها أن تردى ذلك التنين قتيلاً، لكنها و قبل أن تقتله أصابها وباءٌ قاتل أفناها عن آخرها؛ بعدما اقترب فانديتا فاستطعت قراءة الاسم المكتوب على علبة الدواء التى يحملها: تراب الحرية..

كان ذلك هو اسم الدواء!

التنين استعاد عافيته بعدما بُعِث أطفاله بعثاً جديداً، ها هو ذا يطاردهم، فانديتا يجلس في إحدى الحانات مرتديا لملابس تشبه ملابس أبى لهب في الأفلام الدينية، يرشف قدحا من النبيذ، يمسك بالدُف، ينقر عليه نقرات ثَمِلَة لكنها منتظمة، بينما تحلَّق مقيَّدى المقهى ليدورون حوله مصفقين مصحوبين بقعقعات سلاسلهم و خشخشاتها على أرض الحانة، يغنون جميعا لحن القرية: قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة.

نبتة أحلام

على المقهى من جديد، أنتظر لا موعد جديد، أتت غريبتى تلهث كأن شبحاً يطاردها، ما بِكِ! سألت أنا أجابت: لا شئ، فقط عدت لتوى من جنازتى، لكن اليوم كانت أسوأ جنازاتى على الإطلاق.

لم أتعجب من كلماتها، فعلى كل حال لم تكن هذه ميتتها الأولى، قالت لى ذات مرة: مت من قبل عشرات المرات، إلا أننى لن أنسى ميتتى الأولى ما حييت، تلك التى فعلتها حين بدت لى كل الأمور من حولي منطقية.. منطقية حد الجنون.. قررت حينها قتل نفسى إلا أنه ويا للأسف!

حتى هذا بدا لي منطقيا!

أقصوصات كثيرة ترويها نعوشها، لكن ستظل أطرف قصصها على الإطلاق عندما أخبرتنى أنها قتلت صوتاً جنيناً كان يرافقها في رحم أمها.

قالت لى وقتها: بات مزعجا كثيراً فقررت التخلص منه، لا أنكر أنه كان مسليا لى فى ظلمات الرحم، لكنه في النهاية تركنى أخرج وحدي للحياة، بلا لسان، أصرخ في الجميع عسى أن ينتبه أحدهم لصوتى المتروك بالداخل...لتوأمي اللدود، لكن الطبيب لم يجد شيئا، كنت على وشك أن أصدقهم، و أقنع بعدم وجوده، حتى

ظهـــر مـــن جديـــد، وظـــل يـــذكرنى بمـــا فـــات. كان الصوت يقول لي إنه هنا ليحذر كل القادمين من المغادرة، فالقادم هنا مفقود إن أصر على الحياة، سألنى كثيرا أن أبقى معه حيث الحق و الخير و الجمال.. حيث اللاحياة.. اللاموت.. اللا (أي شئ)! حاول معى مراراً حتى أنه أسمعنى صوت أمى الباكى بعدما ضربها أبى، صوت قبلاته على وجنَتَى صديقة أخى التى تـردي لاملابـس، صـوت صـفعاته علـى وجهـى حـين رفضـت الخضـوع لأخـى وتغييـر ملابسـي التـى لا تروقـه؛ لأنهـا ليسـت محتشمة بما يكفي لحفظ صورته كذكر مسيطر، صوت نداءات ذكور العائلة تتعجل طعام الغداء لصديقاتهن، صوت تخبط الآنية فى المطبخ مختلطا بنهرات أمى لي تلعن تباطئي وتندب حظها في آن واحد، كعادتها دائما لا يتسع وقتها كفاية لتفصِّل لعناتى.. تلعننى وحسب..

صـوت أرملـة الحـي تنـدب عمرهـا؛ حـين تنكـر لهـا أبناؤهـا بعـدما قررت الزواج، صوت جارتنا العاقر تنتحب؛ بينما تزف العروس الجديدة لزوجها لتشاركها البيت..

صوت مصمصات شفاه نسوة القرية؛ حين مرت أم صديقتى التي اغتصبها أحد الأوغاد، أصواتهن اللائمة على الأب التَيسِ الذي لم يقتل ابنته في إثر الحادثة.. صوت طفلة الجيران ذات الأربعة عشر ربيعاً بينما تمسك القابلة بخنصر لم يقلم ظفره منذ ثلاثة شهور لزوج عنتيل؛ تفض به بكارتها كأنها تفرغ حبات الكوسة الخضراء من قلوبها البيضاء؛ استعدادا لحشوها.

صوت ضحكات العجائز شامتين في تلك الخائبة البليدة، التى لا تَكفي زوجها حتى بات يخونها كل ليلة، صوت رجفات صبيَّة فى مهد الختان المقدس، تفسح قبضات سيدتين الطريق بين ساقيها لمشرط الطبيب؛ ليمنحها اللارغبة.

صوت شخللة خلخال باتعة الصغيرة و هى تخرج من إحدى حقول موز على طرفه الآخر يخرج صوت لهاث مُكشَة صبى تاجر القرية العجوز، صوت دقات الزار في بيت التاجر العجوز؛ علَّها تفك العمل السفلي الذى يربط باتعة ويمنعها من معاشرته.. صوت الطالبة الأولى في دراستها تبكي ضياع فرصتها في بعثة لألمانيا لأنها بلا محرم، صوت زغاريد أمها بعدما باعوا بعض من أملاكهم ليسافر أخوها للدراسة في أمريكا.. صوت يشبه نهيق الحمار يطوف أروقة القرية فى جوف الليل صادر عن الجنى

الذي يتلبَّس جسد عانس القرية فى حكايا الجدة، صوت شبقات تلك العانس، تمارس عادتها السرية على فراش الوحدة البارد.

أفقت من شرودي على صوت غريبتى تنبهنى بأن قهوتى قد بردت، ابتَسَمتْ رَشَفْت رَشفَة منها، تأملت ملامحها التى بدت مُتربة قليلا مثل مَرثية اليوم، رشفت رشفة أخرى أعادت إليّ شرودى؛ عدت لتأمل مراثي غريبتى، فبدت لي مراثيها كنبتة الحياة تسرقها منها الحكايا، مثلما فعلت الحية مع جلجامش فسرقت منه النبتة التى عانى الأمرين ليجدها، ابتلعتها الحية فانسلخ جلدها فباتت خالدة، ومات جلجامش. لم أقتنع يوما بأن للأفكار صوت إلا حين انتفضت غريبتى الصديقة واقفة قائلة: جلجامش! جلجامش أسطورة.. محض أسطورة.. والأساطير يا عزيزتى لا ظل لها على أرضنا.

بذلت أقصي ما عندي لأتنكر لدهشتى من قدرتها على قراءة أفكاري، لكننى لم أستطع كبح جماح عينى من النظر على الأرض، خلفها نظرت هى لمحل نظرى قبل أن تفزع وتخر باكية حين لم تجد ظلها.

أَعدتُها إلى كرسيها، احتضَنتُها ربَتُّ على ظهرها، كدت أن أعتذر لها إلا أننى لم أعرف هل أعتذر لأننى رأيتها؟ أم لأننى لم أرَ

ظلها؟ أراحت هى رأسها على كتفي، باتت تهذي: أنكيدو ترفق بي، أذابت أنَّاتها الأرض تحت قدميَّ، أفقت بعدها على ربتات خفيفة على وجهى، وجوه مموهة تحدق بي، صوت لأحدهم يسأل: إنتى كويسة؟ أجبت بهزة رأس خفيفة ساعدتنى في تبين حدود دائرة الوجوه المحدقة.. سألت: هيَّا فين؟ أجابوا: هيَّا مين؟ لوهلة تعجبت عندما أدركت إنى حتى الآن لا أعرف اسم غريبتى الصديقة فقلت: صاحبتى.. غريبتي.. (أحلام).. هكذا سميتها. أجابوا: كنتى قاعدة لوحدك وفجأة وقفتى قعدتى تصرخى وأغمى عليكى.

لم أحر جواباً...فقط مررت عينى على وجوههم بصفعات متتالية، اتضح لهم بعدها كل شئ، تركتهم يتحسسون وجوههم، ونهضت أنفض ما بقي فى أذنيَّ من أنغام لحن القرية: "قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة".

فتاة الشَرَك

أعود من المقهى لتلتقطني المرآة، ذلك الشَرَك الزجاجي الملقى على الحائط مرة أخرى، تلتهمنى أذرعه الأخطبوطية، ينظر إليّ بفمه المستعر، تطل منه فتاة، نظرت إليَّ بامتعاض حين تحسست وجهى، ويبدو أنها تسمعنى، أتساءل: لِمَ تمتعض؟ ألِأننى أذكرها بالحقيقة؟ هى لا تحب الحقائق ربما، أمَّا أنا فأرى الحقيقة طفلتى المدللة، أحملها على كتفي ليل نهار، تتوسد رأسي أحياناً لتنام كالملائكة، تقفز بينما تنقر رأسي أحياناً، تركلنى بكعبيها في صدري أحياناً، تبكي حين تجوع أو تعطش، تصرخ حين تُكسر دميتها وأرفض شراء أخرى جديدة لها، تغار عليَّ حين أزور الآخرين وأداعب حقائقهم.

أما فتاة الشَرَك فقد وَأدت طفلتها؛ وربما لهذا غضِبت، حين استدرت لليمين قليلاً لأريها مؤخرتى البارزة، ظهري المقوس، ثم واجهتها لأُريها وجهى القبيح..

قبيح؟ لستِ قبيحة؟ من قال هذا؟ أنتى جميلة، ولستُ وحدى من يراكِ هكذا، أنسيتى ذلك الفتى الذي طالما أخبرك بهذا! لا.. لم يكن فتىً واحداً، كثيرون أخبروك بأنك جميلة وأنهم يحبونك، أنا مثلهم أحبك وأراك جميلة.. قالت فتاة الشَرَك.

كاذبون هم، وأنتِ كاذبة مثلهم، فأمى لم تخبرنى بهذا ولا بتلك وأنا أصدق أمى قُلت أنا.

ثم صَرَخت فيها قبل أن أعود لأتحسَّس أنفي، لا لم يكن أنفاً، هو منخار وفى معجمى هو اسم للمصدر: "خ و ر"؛ فذلك هو التفسير الأكثر منطقية لذلك الخوار الذي أسمعه في صوتي حين أتكلم، وهو طرف المعادلة المفقود الذي "تخور" بدونه قواى حين تصيبنى الأنفلونزا فأفقد حاسة الشم، وأفقد معها كل علاقاتى بهذا العالم، أتذكر مراهقتى حين تضخم ذلك الشئ بصورة مفاجئة فبكَيت، أتذكر كذبات الكبار تربت على حزنى، فتخبرنى أنه فى هذه المرحلة العمرية ستكبر كل ملامحي لتلحق بمنخاري لكنها ستنمو ببطء نسبي مقارنة به؛ هكذا تقول قوانين الهرمونات، لم يبدُ لي تعليلهم منطقياً بقدر ما كان ذلك مطمئناً، يمنحنى الأمل فى استعادة حاسة الشم بأنف مناسبة، فذلك المنخار يجعلنى أشم عفن العالم أكثر مما ينبغى.. نعم عفن العالم، لا عفنى أنا، فأمى كانت تردد دائماً المثل الشعبي القائل: "محدش بيشم ريحة نفسُه" والكبار لا يكذبون أبداً، وفى بلادى هم لا ينطقون عن الهوى. مرت مراهقتى، أوشك شبابى أن يلحق بها ولا زلت أنتظر نمو باقي الملامح لتلحق بمنخاري، لا زلت أؤمن بالكبار وأُكَذّب رائحة اليأس التى زكمت منخاري الماكر.

منخاري له فتحتين واسعتين تبدوان كبئرين مقلوبتين، لم يكن ذلك يزعجنى على أية حال، ما يفزعنى حقا –أو قل ما كان يفزعنى– هو أن البئرين غير متماثلتين؛ فإحداهما بفتحة بيضاوية منتظمة و الأخرى معقوفة في إحدى جوانبها، كأن الأولى تخصصت في الشهيق، والأخري في زفير متمرد أَبَىَ أن يمر دون أن يحفر نتوءاته على فتحة البئر، لا يهم؛ فكل ذلك لا يعنينى حقاً، أو لم يعد يعنينى، فما قيمة التماثل؟.. لا شئ، التماثل محض خيال، فحتى التواءم لهما بصمتين مختلفتين، لا شئ يشبه الآخر في هذا العالم، أنا لا أشبهنى، فالأشباه تتنافر يا صديقى أما أنا فلا زلت حبيسة نفسي لصيقةً بفتاة الشَرَك.

أخبرك سراً، كان لدى أنف آخر حتى عمر الرابعة عشر، أخبرنى أبى أنه لن يدع طبيب القرية يقُصُّه مثلما يفعل بباقي الفتيات، لا لا.. أنا أكذب لم يعدنى أبي بشئ، هو فقط عاهدنى على صداقة بيننا وحماية لى مدى الحياة، وبناء عليه وعدت أنا نفسي، راهنت الصديقات أن أبي لن يأخذنى مثلهن للطبيب ليقتص قطعة من أنفى الرابض بين فخذيَّ، لكنه فعل.. لا لن أكذب وأظلمه مرة أخرى؛ هو لم يأخذنى للطبيب، هو أتى بالطبيب إلى المنزل.. هو لم يفعل.. أقصد لم يفعلها وحده.. بل فعلوها جميعاً، هو، أمى، عمى، الطبيب، وزوجة الخال.

أيتها الفتاة المطلة من الشَرَك لا تكممى فمى، ارحلى إن شئتِ، صمِّى أذنيك، أو تعالي واحملي عن كتفي الحقيقة وتحملى أنتِ ركلاتهـــا فـــى صـــدرك؛ وإلا فلتـــدعينى أكمـــل.
نعم يا فتاتى، لم يفعلها طبيبهم وحده، بل فعلوها جميعاً، ولم تزدهم صرخاتى وتوسلاتى إلا إصراراً، كلما دعوتهم لأغفر لهم أَحكَموا على ركبتيَّ قبضاتهم واستغشوا بثيابي.

لا زلت أشعر بمشرط الطبيب على أنفي السفلي رغم أنه أعطانى جرعتين من المخدر الموضعى، أصرخ مجددا.. لا ليس مجدداً، فالصراخ لم يتوقف من الأصل حتى يتجدد، لكنه ربما لم يصل للدرجة اللازمة للفت انتباههم، فالطبيب يقص أنفي بينما يقص عليهم بعض طرفاته، وهم يضحكون.

سأتوقف عن الصراخ، فلا جدوى.

سيحكى الطبيب الآن طرفة جديدة بطلتها هى جارتنا سَنِيَّة، التى زارته مع ابنتها وهي فزعة من ذلك البروز حديث الظهور في نهد طفلتها، فطمئنها الطبيب: ما تقلقيش دي من علامات البلوغ.
ردت سنية: بلوغ إيه!

الطبيب: بِنتك بَلَغِت خلاص.

سنية: يا لاهوى بلغت سن الرشد! والنبى دانا كنت نقطعها! يتبادل الجميع القهقهات، بينما يخيط الطبيب جرحي المنزلى الصنع، أشعر به يغرس الإبرة، يمررها، ينتزعها، يمرر الخيط، يرفعه، يشده، يربط الغرزة ليبدأ من جديد، الألم صار منتظما متوقعاً إلى حد كبير، قطعته شدة عنيفة نوعاً أصدرَت منى أنه خفيفة، ضحك منها الطبيب قائلاً: دي شعرة بشيلها أعقبه صوت أحدهم يلوم الوالدين: سايبينها لما بَقي عندها شَعر.

صوت آخر يرد محاولاً تلطيف الجو: إيه دا! إنتى بلغتى سن الرشد! هنبعتك لسنية تِقطَّعِكْ.

ضحك الجميع، حاولت المشاركة إشفاقاً ورفعاً للحرج عن والديَّ ولم أستطع، حاولت أن أصرخ فلم أجد صوتى، سأكتشف فيما بعد أننى فقدت مع تلك القطعة الجلدية قدرتى على التعبير، وفقدت معها شهيتى للألم والفرح على السواء.. "التعبير عن الألم إن لم يزده ضراوة فلن يوقفه ".. حكمة جديدة سأدونها فى دفترى.

حسنا، أنهى الطبيب مهمته، سمحوا لى بالفرار أخيراً؛ جريت لأختبئ بغرفتى وقد صَنَعت من رجليَّ، نصفي دائرة بينهما مسافة تسمح لقدمى بالتقاط الخطوات من الطريق.

بدا لى ذلك منطقياً، غير أننى لا أعلم لِم أنحنى ظهرى صانعاً قوسٍ ثالثٍ يتعامد مع الآخرين، مُذيَّل برأسى تتدلى في خط موازٍ شديد القرب من أنفي المقطوع كأنها تصد عنه النظرات، أو يتفقد منخارى العلوي صديقه المصاب متمنياً نفسه مكانه. علت أصوات ضحكات صِبيَة العائلة ساخرة مني، حتى أوشَكَت على قطع طريقى لفراشي، لم أقاوم بل ربما لو كنت أملك مشاركتهم السخرية لما تأخرت، فمن ذا الذي يقاوم الضحك من فتاة حولها مشرط الطبيب لأحدب نوتردام، أى فانتازيا هذه...أفتقد الضحك كثيراً حقاً، لكننى حين ارتميت على فراشي وجدتنى أفتقد البكاء أكثر من أي شئ.

خلدت للنوم، استيقظت على صوت الخالة الشمطاء، تزغرد وهى تدفن ورقة مالية فى كفي.

-عشرين جنيه! يا بلاش (قلت لنفسي)

-قومي كدا ياختى وبطلى دلع، هو انتِ أول ولا آخر واحدة! جيل مايص صحيح! دا لسه ياما جايلك: جواز.. وحبل وولادة ورضاعة!

مصمصت شفتيها قبل أن تكمل.

الله يرحم أم نزيه الداية كانت بتفركنا بتراب الفرن وتقطع بالموس، وكلنا بموس واحد، وبعدين تطسنا بشوية تراب فرن أو شويِّة بُن تكتم بيه الدم وتتَّها ماشية، لا تطهير بقي ولا بنج ولا خياطة ولا يحزنون.. آخرها كانت بتملَّح الحِتَّة المقطوعة وتربطها لنا زي الغويشة، ومَتى ما دابت الحِتَة تطيبي على طول، إلا صحيح هى أمك ما ربطتلكيش الحتة ليه عشان تطيبي دوغري! لم أحر جواباً، فقط بصقت عليها بعينيَّ، أمى هي من أجابت وهى تحمل دجاجة مسلوقة باتجاه فمى: خلاص يا أم سهير الطب اتقدم الكلام دا كان زمان (ثم استدارت باتجاهى) قائلة: ما بتاكليش ليه؟!

– شكرا مش جعانة

أوليتهما ظهرى، ليستكملا حديثهما، شهقت أم سهير قبل أن تقول: شوفتى ياختى اللي حصل لسعاد، جوزها الواطي طلقها وهى نفَسَة، أصل خلفتها كلها بنات، بس بينى وبينك هى تستاهل، يعنى كل سنة تجيب بطن و مش قادرة تجيبله واد من صلبه، دى من كُتر بناتها نسوا يطاهروا واحدة منهم، ودايرين وراها يجيبوها من غيطان الموز كل كام يوم، لحد ما زهقوا وحبسوها لحد ما يجيلها عدلها.

لا فعلا الطب اتقدم يا أم سهير (قلت لنفسي قبل أن أستسلم للنوم).

استيقظت أفضل كثيراً، أرغب فى الذهاب لقضاء حاجتى، نهضت لأرسم الأقواس الثلاثة، استطعت التقاط خطوتين حتى الباب، رفعت رأسي لأفتحه، فسقطت على الأرض فاقدة للوعى... يبدو أن ظهرى لم يعد يتحمل الاستقامة.. أو أن عينيّ باتت تَهاب الأبواب المفتوحة.

تفيقني رائحة عطر قوية، مصحوبة بربتاتهم على وجهي، أحاول فتح عينى، لكن يأبي جفنى، كأنما يتكئ عليه ثقل ما.. يبدو أنهم ألصقوا الجلدة المقطوعة عليه؛ ابتسمت حين تخيلت ذلك.

آه! لقد نسيت فتاة الشرك، أتفقدها فتبدو لى وقد انصهرت نظرتها، المسافة بيننا لا تزال ثابتة، لا لا، هى ثابتة منذ الأزل.. خالية تماماً، لم يمسسها بشر، حتى أن عنكبوتاً ماكراً سكنها لينسج فيها بيته، وأعطته كلتانا الأمان وعهداً بالحماية. أسألها: لماذا أنتِ صامتة هكذا؟! لا تجيب.

-أصُدِمتى؟!

-لا إجابة.

-أين صوتك؟!

-لا صوت.

بقِيَت على تلك الحال، حتى تساقط منها مصهور نظرتها؛ فتمعدنت كليا، أتساءل: هل ماتت؟

أحكم قبضتي لأطرق جبهتها الصَّماء، فتعود قبضة الصدى فتطرق جبهتى، تبتلع جبهتى طَرَقاتها، قبل أن يعبث صداها برأسي، كأنها تطرق خشباً أجوفاً نخره السوس، أعود فأطرِق، فيعود الصدى.. وهكذا، حتى صَرَخَت فتاة الشَرَك فجأة: كُفِّي، تَوقَّفي.

-ما هذا أتصرخين! أتألمين كما يألم الآخرون! - يالوقاحتِك!

- لا، أنا لا أسخر منك، أنا أتساءل حقاً، ظننت أنك فقدت الإحساس بالألم، فمنذ أن أحرَقتنا الجلدة التى ربطوها على معصمينا، تساقط جلدك وفقدت الألم، أما أنا فكلما فقدت جلدى أبدلونى جلوداً أخرى.

- ألم أقل أنك وقحة!

- لمَ؟

– أحقاً لا تعرفين لمَ؟ أمضيت ساعة تسخرين من عائلتك و تقرأين على مسامعى عريضة دعوى.. ماذا تريدين منِّى؟ ألم يعلمك أحد بأن السخرية من سوء الأدب وإن كان من الوالدين والأقربين فإن ذلك عقوق؟

– نعم معك الحق، كالعادة أنا المخطئة دائماً، أنا من نسيت الحكمة المدونة بالدفتر أن لا فائدة من الصراخ، لكنى ظننتنى لوهلة أصرخ لنفسي، ألستِ أنا؟

– لا لست أنا أنتِ، أنا فتاة محترمة، تقدِّر عائلتها، وتعلم أن ما فعلوه كان لمصلحتها، حتى يعفُّونها، فتصبح أكثر قدرة على مقاومة إغراء البغاء، وتبقي فى نظر زوجها جوهرة، تصونه إذا غاب.

– ها ها ها، جوهرة.. إغراء.. عفاف.. زواج.. أصبحتِ تتحدثين لغتهم؟.. لغة الأحياء... أنسيتِ أننا لسنا منهم.
– تحدثي عن نفسك فقط.

– حسناً، إذن أخبرينى أيتها الحيَّة هل ستتزوجين؟ تتزوجين من ذلك الذي يفعلون كل شئ باسمه!

– لا.. نعم.. ربما.. لا أعلم.

– هـا هـا هـا، حسـنا، بفـرض زواجـك هـل سـتتجبين؟
– ربما لو استطعت.

– إن أنجبتى أنثى ستختتينها؟

– لا.. أقصد لا أدري ربما أحدث الطب بعد ذلك أمراً، يقيها شر نفسها دون أن أختتها.

– ها ها ها، فعلا فعلا (الطب اتقدم)

– توقفي أيتها الوقحة العاقَّة، كفي عن تمثيل دور الضحية فى الحكاية، تستحقين أكثر مما حدث لأنك ولدتِ أنثى؛ فأكرموكِ ولم يفعلوا مثل غيرهم من الجهلة، ألا يكفيك أنهم ربوك وأطعموكِ وعلموكِ رغم كل ذلك؟

– أنت محقة، سأذهب لأسجد لهم كما فَعَلتِ، يستحقونها حقاً، يا لوقاحتي! كيف لم أفطن لذلك؟، أمتلك عائلة رائعة تحرِقُنا لمصلحتنا، تئدنا لكي نعيش حياة أفضل، تشعل شمعة آلامنا فى الصغر لتضئ لنا في الكبر، تضع في حسبانها كل الاحتمالات لدرجة أنها تصون زوجي قبل أن أتزوج.. أتعلمين؟ أنا لستُ وقحة فقط أنا كاذبة أيضاً، وجوه المقهى كانت محقة، فأنا أهذى، فليس لدى منخار، لدي أنف صغير قوقازى، متماثل الفتحتين، صوتى

أيضاً جميل ليس خواراً كما أدَّعى، أزيدك من الشعر بيتاً؟ أنفى السفلى يشكر لهم فعلتهم آناء الليل وأطراف النهار، ظهرى مستقيم أيضاً لا تثريب فى ذلك، أنا سعيدة وفخورة بهم، أنا أحب عائلتي، عائلتي مثالية، فعائلتي لا تغنى لحن القرية: "قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة"

خطايا

من ألقى بهذا السرير تحتى؟

من ألصق هذا الستار فوق عينيَّ؟

من هؤلاء الواقفون خلفها؟

أين يديَّ؟

لِمَ لا تساعداننى لأزيح الستار قليلاً؟

أين أنا؟ من أنا؟ ماذا يحدث؟ ماذا حدث؟

لم يضربوننى على وجهى؟ لم تحدق بي الوجوه؟

لم ينادوننى باسمي كأنهم يُذَكِّرونى به؟ أَنَسيته؟

لِمَ لَمْ أتبين من الوجوه غير وجه فتاة الشرَك ووجه أمى؟

أين كبيرهم؟ لمَ حطم لي الأحلام بعد أن صدقت الرؤيا؟

أتصفح الوجوه.. ألتقط من مُقلتىَّ معول وأحطمهم جميعاً، أضع معولي فى هدوء ثم أتساءل : أين أبي؟

اقتربت منى فتاة الشرَك، تحتضننى وتربت على ظهري، تنادينى من فوقى ألا تخافي ولا تحزنى قد أغلقت الباب، فهيت لك الحياة.

صرخت فيها: أي حياة؟ تقصدين تلك التى قدَّت قميصى من دبر فصدَّقوها وكُنت أنا من الكاذبين؟

تساقطت دموعها تحت عينَى وهي تقول: اهدأي، تفهمى الموقف، هم يحبونك ولا يريدون بك شراً؛ فقط كانوا يُطهِّرونك.

– يطهروننى؟

من أي خطيئة؟

بأي ذنب؟

أَنَجِسَة أنا؟ متى تنجست؟ من فعلها بي؟

تعلمين أننى لم يمسسنى بشر وما كنت بغيا.

– أعلم هذا، لكنك ولِدتِ أنثى، وليس الذكر كالأنثى.. ليست خطيئتك يا عزيزتى، إنما هى خطيئة حواء.. خطيئة أمك.

– خطيئة أمى؟ حواء؟ ها ها ها تتحدثين مثل مدرس الدين؛ هو أيضاً قال لنا أن الحيض نجس، وأننا نحيض لأن الشيطان قد رفث حواء فى بطنها، رفثة سَقَط فيها شراع ميراث الخطايا من السفينة، فلم يعد للذكر حظ؛ توارثتها بناتها فقط.

–يـا إلهـى! تسـخرين مـن مـدرس الـدين! أكفرتـى بالـذي خلقـك؟ استغفري الله.

–الله! أي إلـه هذا الذي يورثنا النجس، إن كان موجوداً حقاً فأين عدلـه؟ لـم نـرث وحـدنا الخطايـا؟ أيـن خطيئـة آدم.. آدم.. خطيئـة الإله.

– توقفي، اصمتى، اصمتى..

– لا لن أفعل؛ لن أفعل حتى يعتذر لـى الرب عن خطيئته؛ ربما سامحته حينها.

– هذا فراق بينى وبينك؛ قد بلغتِ من لدنى ألما.

– اذهبي.. لـم أعد أطيق وجودك علـى أيـة حـال يـا ناقصـة العقل والـدين، شـهادتك نصـف شـهادته، وخطيئتـك أضـعاف خطايـاه، اذهبي لكن متى تحيضـي فلتتذكري ألا تلمسـي زرعا فتؤذينـه كما أخبرنـا مدرسنا، واحذري أن تمسـي كـلام إلهك حينها، تذكري أنك مطرودة من كل الرحمات، تذكري ذلك جيدا أيتها النجسة.

تذكري الليلة التى بتِّي فيها على أعتاب إلهك تستجدينه ألا يفعلها بك فتحيضـي مثلهن، تذكري فزع حيضتك الأولـى، تذكرى تهامس

الفتيات فى الفصل حولك حين رأين بقعة من دمائك على زيك المدرسي، تذكري الألم، الرائحة، الغثيان.

تظنين أنى لم أسمعك وأنتِ تتمنين انقطاع حيضك إلى الأبد، حين سمعت عن اللائي يئسن من المحيض، حين استنكرتِ أن يُسمَّوا أملك يأساً!

فلتنتظري وحدك أمَلَكِ ويأسَهن.

أمَلَك بأن تضعى عنك خماراً طالما أثقل رأسك، أن تمسي المصحف كل يوم، أن تروي زهورك كل يوم دون أن تتأذي، أن تسافري بلا ذكر، بلا محرم

أبقى هكذا علَّ في عمرك وصحتك بقية من حياة.

أبقى هكذا تنتظرين يأس الحياة منك.

أخبرك مفاجأة؟

حتى إن تحقق أملك في اليأس، فستظلين بنصف شهادة، بنصف ميراث، بكل ميراث الخطايا، وبلا حياة، ستظلين تصرخين على عتبات إله لن يسمع، تقدمين له القرابين و يكتب هو اسمك على الأزلام ليصيب بها قرباناً منك يكفر لكِ به عن خطيئة جديدة من

خطاياه: خطايا آدم: آدم الذي قطعوا أنفك باسمه، وضعوا على رأسك خماراً لأجله، آدم الذي رفثك إبليس بروح منه، نعم آدم: خطيئة الإله الأولى.

ها ها ها لا زلت هنا! لَم تَذهَبي كما قلتى! لا تنظري إليَّ هكذا، لا تقتربي مني أكثر، ابتعدي، لا لا ليس باتجاه الباب، أرجوكي لا تفعلي، لا تفتحيه، لا تفتحي باب الغرفة، أنا آسفة، أستغفر الله العظيم، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لَمَ فتحتى الباب؟ يا إلهى ليتهم قطعوا آذانى مع أنفي قبل أن أسمع مجدداً لحن القرية: "قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة".

علم (بلدي)

فى صالة الاستقبال بإحدى المستشفيات أجلس؛ أنتظر حتى يحين موعد الزيارات؛ لأعود غريبتى الصديقة.

فجأة تدخل سيدة ثلاثينية مرتدية ملابس منزلية (بيجاما)، تحمل طفلة صغيرة في عامها الثانى تقريباً، تركض بينما تتبعها طفلة أخرى أكبر قليلاً، تصرخ السيدة في الجميع، ولا أحد يفهم ما تقول، قام بعض الجالسين وأجلسوها مكانهم، فما إن جلست حتى تفلتت الصغيرة منها وذهبت لتلعب مع أختها، بينما استمرت الأم في الصراخ، حتى جاء فريق الطوارئ بالمستشفي، اقترب منها أحدهم يسبقه كرسي متحرك، طلب منها الجلوس عليه، صرخت فيه: مش أنا دي بنتى، دى وقعت اتعورت وشرفها راح، ضاع خلاص، أبوس إيديكوا الحقوها.. الحقوها.

نظر الجميع باستهجان إلى الطفلة غير المكترثة بشئ بينما ذهبت الممرضة تحاول حملها، فصرخت الطفلة: مش عايزة آخد حقنة، مش عايزة آخد حقنة.

أخذوها إلى غرفة الطوارئ، تتبعها أمها المنهارة وبيدها الأخت الكبيرة.

قبل أن تمصمص بعض من الجالسات شفاههن، يتحسرن على الشرف المهتوك والمستقبل الضائع، إحداهن قالت: عينى يا بنتى، حقها تاخد شهادة مختومة من المستشفي، احنا داخلين على أيام سودة، وولاد الحرام ما خلوش لولاد الحلال حاجة.

ابتسمت لهن.. لا لا؛ في الحقيقة بصقت عليهن، نَظَرت إلى الساعة التى بدت كأنها ملتصقة بالحائط، بينما تحاول عقاربها الإفلات من الزمن، من التكرار، من اللانهاية، مثل الصغيرة التى فرَّت من أمها منذ قليل، ومثل إطارَي دراجتى، حين كنت طفلة أعتليها، أُسرع وأُسرع بها حتى أوشك أن أطير هاربة من قبضات الجاذبية الأرضية، من جديلتىَّ الطويلَتَينِ، من همسات نسوة القرية حولي وحول أهلى الذين سمحوا لي بذلك، من لعنات العجائز على الزمن الذي جاء لتعتلى فيه الأنثى دراجة.

أذكر يوماً حين كنت في زيارة لجدَّتى ألعب أمام بيتها بدراجتى حتى مر بجانبي أحد الجيران يحدو جَمَلَين أو ربما ثلاثة جِمال، فلم أدر إلا بخفوفهم فوقي، رأيتها رأى العين، صرخ المارة، جاءت جدتى، التقطتنى، وضعتنى في غرفتها، تفحصت أنفي السفلى جيداً ثم مرت مرور الكرام على باقي الجسد، لتعود ثانية إلى منطقة الأنف السفلي، تدخل علينا الجارة العجوز بلا استئذان،

تسأل عنى، في الحقيقة هى لم تسأل عنى أنا، هى فقط سألت عن أنفي السفلي تحديداً، طمأنتها جدتى، ابتسمتا؛ فابتسمت وأنا لا أفهم شيئاً، فحتى حينها لم أكن أعرف فائدة لأنفى هذا سوى التبول لا غير، لم أكن قد اكتشفت بعد أنه أهم أجزاء جسدى على الإطلاق.

ربما تكمن (الروح) هناك، عند أنفي السفلى؛ وعرفتا هذا السر هاتان العجوزتان، وتخافان إفشائه حتى لا تصيبهما اللعنات.

يا إلهى ربما علمتا أيضاَ سر الساعة وما تحمله الأرحام.

ينبغى علىَّ أن أحذَرَهُما وألا أغضِبَهُما مهما حدث.

هكذا قلت لنفسي قبل أن أغادر بيت الجدة.

عدت لبيت أبي، قبل أيام من عرس أحد أبناء الجيران، أتابع طقوس ما قبل الزفاف من شرفتنا المطلة على باحتهم؛ فلم يكن مسموحاً لى حينها سوى بالمشاهدة عن بعد.

قبل العرس تحدثت مع جارَتنا الصغيرة (أخت العريس)، في فترة القيلولة بينما ينام والدي، أخبرتنى الجارة الصغيرة أن: "الدخلة بلدي".

لم أعرف ما تعنيه الكلمة، لم أكن أصلا أعرف من المفردات ما اقترن بلفظ "بلدى" سوى البرتقال البلدى، أعتقد أن جارتى قد تفهمت جهلى، فلم تدخر جهداً لتشرح لي تفاصيل الدخلة البلدى، ولم أدخر أنا جهدا لأفهم أو لأستوعب كلامها، لكننى فشلت تماماً، فجُلُّ ما أدركته أن شيئاً ما سيحدث لأنف العروس السفلي، لم أنشغل كثيراً بالتفكير فى الأمر.

ربما سيطمئنون على روحها مثلما فعلت معي الجدة، هكذا قُلت لنفسي.

بعد العصر دقت الطبول، وبدأت طقوس العرس، كم أحب هذه الطقوس! ليتنى أتمكن من مشاركتهم! تبدو العروس جميلة لكنها تكبرنى بقليل، ترى هل اقترب يومي؟ أقصد زفافي، ربما، هل ستكون دخلتى بلدى أيضا؟ لكن كيف سأتزوج وأنا لا أفهم معنى (بلدي)؟

حسنا طالما كان الأمر بخصوص الأرواح؛ فسأسأل عنها جدَّتى خبيرة الأرواح؛ هى دائماً تستطيع شرح كل شئ ببساطة، وأحيانا تلمِّح لي فأفهم لغزي وأحله بنفسي، مثلما حدث يوم سألتها عن كيفية حدوث الحمل، فتركتنى أفكر بنفسي حتى توصلت للسر، وأتيتها سعيدة به، كان السر يكمن في (الدبلة) حين تنتقل من اليد

اليمنى إلى اليسرى، سعدت جدتى كثيراً بذكائي و صدَّقت على إجابتي.

العُرسُ فى طريقه للنهاية، دخل العروسان المنزل، وبقي (المعازيم) بالخارج صامتين، طال بقائهم فزاد اصراري على المراقبة لمعرفة السبب، حتى خرجت فتاة تشبه العروس لكنها تبدو أصغر قليلاً من العروس –لابد أنها أختها– تجري في اتجاه والدها، تحمل منديلاً أبيض مبقعاً بالدماء، هلَعتُ أنا.؛ يا الهى! ماذا حدث؟، من جُرح؟ وكيف؟

جاءت الإجابة سريعاً، حين خطف الأب المنديل، أمسكه من طرفيه بيديه، رفعه عالياً كأنه علم (بلدى) دون سواد، أخذ يرقص على شرف (الروح)، أختها تصفق، أمها تزغرد، الجميع يغنى لحن القرية: "قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة".

غرفة (٦٠٨)

أعلنت موظفة الاستقبال عن دخول موعد الزيارة، توجهت إلى الغرفة (٦٠٨)، كعادتى أفكر في دلالة الأرقام، رقمان زوجيان يفصلهما صفر، يفصلهما لا شئ، يُكتب كدائرةٍ مغلقة بالإنجليزية، وكنقطة فاصلة بالعربية.

قابلت طبيبها على باب الغرفة، أخبرني أنها تعانى من صدمة نفسية، وأنها الآن تحت تأثير الحقنة المهدئة، التى اضطر لها بعدما بدأت تهذى، بهلاوس سمعية وبصرية، من قريتها و منزلها وآخرها صالة الاستقبال بالمستشفي. طلب منى ألا أزعجها، وألا أجادلها مهما قالت؛ هززت رأسي متفهمة الوضع، وخطوت لأجلس على الكرسي الملاصق لسريرها.

كانت في حالة برزخية، عيناها نصف مفتوحتين، كذلك فمها، قبضتا يديها، وحروفها. تحاول بين الحين والآخر أن تخبرني شيئاً، فيثقلها نعش كلماتها، ويواريها الصمت، لكنها أخيراً استطاعت بعث بضع كلمات، فهمت منها أنها تريدنى أن آخذ الورقة الموضوعة في درج الخزانة في الغرفة وأوصلها إلى أمِّها بعد أن أقرأ ما بها.

عدت لمنزلى، اضطجعتُ على فراشى، فتحت الرسالة، بدأت القراءة:

أمي.. كيف حالك؟

في البداية اعذري لى سوء خطى؛ تقطعت بعض أوتار معصمى بالأمس، قطعها هاديس؛ بالكاد أستطيع الإمساك بقلمى، وبالكاد أرى حروفى؛ فعيناى متورمتان؛ لا أعرف سبب التورم، كثرة البكاء؟ أم صفعات هاديس؟

مساء الخير يا أمى، أتمنى أن تصلك رسالتى في المساء؛ فأنا لم أعد أحب الصباحات يا أمى.. لم أعد أحب المساءات أيضاً.. في الحقيقة لم أعد أهتم، فبعدما أفلتت العقارب من ساعتى؛ فقدت الإحساس بالألم، بالوقت، فعقاربها تلدغنى آناء الليل وأطراف النهار.

لكننى لا زلت أمتن لمساءاتى.. كنت أعشق المساءات يا أمى؛ أخبز على قمرها أحلاماً شهية، أغزل من نجومها وشاحاً أتظاهر بسقوطه سهواً، حين يلتقط فتاى يدي ليراقصنى. أتعلمين؟.. كنت أملأ بالمساءات كأسينا، أشرب حتى الثمالة دون قلق؛ ففي الغد سيفيقنى فنجان من حبوب الصباح المحمصة جيداً. أُوَدِّع فتى

الليلة، أتوسد الماضي، ألتحف بالمستقبل، لكننى لم أعد أشعر.. لم أعد أشعر إلا بالبرد يا أمى؛ فقد نفذ البن من خزانتى، سرقَهُ هاديس، هاديس صاحب مملكة الأموات -أو على الأحرى النصف أموات- فهاديس يحكم الأموات الذين لا ينتظرهم حساب فلا جنة ولا نار، الموتى الحياديين أمثالنا، أعجبته بريسفونى فاستدرجها بوردة إلي مملكته، أخفى بريسفونى فحزنت أمها ديمتر الهة الزراعة فبارت الأرض وعم الجوع، حتى كشفت لها الشمس فعلته فوعدها هاديس باعادة الابنة، لكنه لم يفعل إلا بعد أن أطعم بريسفونى حبة رمان سحرية تجعلها تعود له ثانية. لم تَركتِه يأخذنى يا أمي؟ هل كنت عبئاً عليك إلى هذا الحد؟

أنظري إلى وجهى جيداً.. لست بريسفونى، لست هي يا أمى. أخذنى هاديس يا أمى، أخذنى بعد أن وعدك بإعادتى في موسم الزراعة، لم يعِدنى ولن يُعيدنى، تركك وحدك تحصدين الخيبة. خيبة! أى خيبة؟ لم تخبرينى يوماً بندمك.. هل حقاً ذبلت الزهور بدونى؟ لم تخبرينى يوماً بهذا؛ ربما لأنه لم تتقابل سوى وجوهنا من يومها.

حسناً، سامحينى، لن ألومك بشأن برسفونى؛ فلربما اختلط عليك الأمر، لكننى أعلم يقيناً أنك تعرفين هاديس.. نعم تعرفينه جيداً،

رأيت هاديس الكبير يسخر منكِ، يعنفك، ينهرك، يضربك، مراراً، رأيتُكِ تَألَمين، تصرخين، تكتمين، تدمعين، تموتين أمام عينى في اللحظة آلاف المرات، تتكرين، تصدقين، تنسين، تتذكرين، تدمعين، تكتمين.

أظننتى أنني لم أركِ؟ أم ظننت أن هاديس الصغير لن يفعل بي مثلما فعل بكِ.. أبي.. مثلما فعل بنا جميعاً؟ لكننا كنا صغاراً؛ لا نملك حتى حق الدفاع يا أمى، وكنتِ كبيرة، لن أسألك لِمَ لم تدافعين عنا، لن ألومك على ذلك، لكننى لا أستطيع أن أغفر لك استسلامك؛ لِمَ لَم تدافعى عن نفسك؟ تثوري؟ أو حتى تثرثري بما حدث؟.

آه يا أمى.. لم أورثتنى كتمانك؟ استسلامك؟ ألمك؟. ألا تعرفين أنه موجع يا أمى، نعم موجع حَدَّ الإنكار.. حَدَّ الهذيان.

أخبرك سراً؟ أعلم يقيناً أنه اغتصبك، نعم فلقد أورثتِنى هذه أيضاً، تماماً كما علمتِنى أن الملائكة ستلعننى إن لم أرحب باغتصابى! على أية حال لم تعد تعنينى كثيراً لعناتهم، لم يعد يُضير شاتى شيئاً.

مسكينة هى تلك الملائكة؛ خلقوا خصيصاً من أجل لعناتى، يشمئزون من حيضي و نفاسي، يلعنوننى حين أعترض، حين أخرج للحياة دون استئذان هاديس، حين أغضبه، و حين أرفضه.. أشفق عليهم حقاً، لو كنت مكانهم لضقت ذرعاً؛ فقطعت يسراي، أو ربما سجلت لعناتى مقدماً؛ لأنعم بإجازة قصيرة. أشفق على معصم ملاكي حقاً قدر ما تؤلمنى أوتار معصمي، أعذره قدر ما أعذر قلمي العاجز عن اللحاق بركب الألم. أكاد أرى الملائكة على يساري وهى تحقد على نظائرها المنعمة عند هاديس؛ فهاديس لا يخطئ أبداً يا أمى، وإن فعل فإن ملائكتى ستكتب عنى خطيئته!

هاديس ليس نجسا مثلنا يا أمي، هاديس طاهر، ثوبه نظيف طالما لم يلامس نجسنا: أجسادنا، أو يُبلل سرواله حين تطوف نجاستنا في حُلمه، فنحن نجس الواقع والأحلام يا أمي. أتعلمين؟ بعد كل اتصال جسدى بهاديس، أحضر عدسة مكبرة؛ أبحث من خلالها على الشراشف عن نقطة من دمائي أحسبها تتعمد الاختباء، لا لا فلربما صارت دمائي شفافة! لا لا، لا أعتقد ذلك فعندما يضربنى هاديس أرى دماء حمراء تسيل من فمي، هى يقيناً لا زالت حمراء لكنها مختبئة منى؛ هى فقط خجلى؛ تستصغر نفسها بجانب الألم،

الذي اختزلته اللغة في ثلاث حروف: "أ.ل.م" تماماً مثلما اختزلتيه يا أمي، لكنك أورثتينيه دون اختزال.

(أ.ل.م)، (آ.د.م)! هاهاها تلك هى المرة الأولى التى أفطن فيها لهذا الجناس الناقص بينهما! ربما لو أعطانى الألم دمائي لصار الجناس تاماً.

(د.م)، (آ.د.م) هاهاها! ها هو جناس جديد يا أمى.

لِمَ لَم تُعِذنا و ذريتنا منه حواء كما فعلت أم مريم؟ أظننى فقدت الأمل فى حواء؛ لم يكن الأمر بيدها على أية حال؛ لم تكن مخيرة مثل (عشتار) حين أحبَّت اللون الأحمر: لون الدم، لون (آدم)، لون (هاديس)، لون عينيَّ الآن، لون الكدمات بأنحاء جسدى، لون البقع على علم (بلدي).

لمَ اختارت أن تكون آلهة الخصوبة؟ أيحتاج العالم لمزيد من الـ(دماء)؟ لمَ تركتِنى أنجب يا أمى؟ ألِد هاديس صغير، ألِد خطيئتى يا أمى وأهز إلى بجزع الندم؟

(ن.د.م)، (آ.د.م)، (أ.ل.م)، (د.م).

لم تكن عشتار مجبرة على اختيار كهذا، أنت أيضاً يا أمى لم تكونى مجبرة على هذا الاختيار.

مجبرة على الاختيار؟

لا يهم، لم يعد يهم؛ بلغت منى اللامبالاة الحد الذي تبدو لي فيه جملة "مجبرة على الاختيار" جملة عادية، ربما لدرجة التفكير فى إعراب كلماتها، أو البحث فيها عن جناس جديد يا أمى.

(ن.ج.س)، (ج.ن.ا.س)، (جِ.ن.س)، (س.ج.ن).

(د.م)، (آ.د.م)، (ن.د.م)، (ع.د.م)، (أ.ل.م)، (أ.م.ل).

أمل؟ ألم؟

أتعرفين وجه الشبه بينهما يا أمي؟

الشبه أن كليهما قاتل حال الإفراط فيه وتجاوز الجرعة. أمل..ألم...اثنان قتلانى و ثالثهما أمي..

(أ.ل.م)..(أ.م.ل)..(أ.م.ى).

مساء الخير يا أمى.

انتهيت من قراءة الرسالة، نعم قراءتها، فما حاجتى للقلم في يمينى؟ من أعادنى إلى غرفة (٦٠٨)؟ لِمَ تنهرنى الممرضة؟ فأنا لم أزعج أحلام.. غريبتى.. أحلام! أين ذَهَبَت؟ لمَ أجلس على فراش مرضها؟

صَرَختُ في الممرضة؛ لتتوقف، لم تستجب، نادت على زميلاتها، كبلننى جيداً، ليتمكنَّ من وريدي؛ ويحقنَّ فيه لحن القرية: "قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة"

لم يعد هنا!

ثلاثة أسابيع مرت دون أن ألتقي الغريبة: أحلام، أذهب للمقهي، أنتظرها.. فلا تأتي، أطلب قهوتي من النادل، أعود لتصفح شبكات التواصل الاجتماعي، أكتب منشورا عن ابني يحيى حين تساءل عن معنى الحرية، عن فخري به حينها قَدر حيرتي وعجزي عن تعريف الحرية، حتى تذكرت مقولة: "بضدها تتميز الأشياء"، لذا أخبرته أن الحرية هي أن لا تكون مجبراً على شيء. يومها كتبت له لافتة تقول: إن كنت مجبراً على شيء في هذه الدنيا فهو أن تكون حراً، أعددت من اللافتة نسخ عدة، علقتها في أماكن مختلفة في منزلنا.

كانت اللافتة الأولى التي أعلقها دون خوف؛ رحل الخوف عن المنزل حين رحل هاديس، لا أتذكر ملابسات رحيله.. أو ربما لا أريد أن أتذكر.. أقتلته؟ أقتلني؟ لا يهم فالنتيجة واحدة: أنا الآن بلا هاديس، بلا خوف، بلا أسرار، أستطيع تعليق اللافتات، ترديد الشعارات، أستطيع أن أصرخ، أتألم، أفرح، أحزن، أقبل، أرفض، باختصار: (أحيا).

هاديس كان يكره اللافتات، يعشق الجدران الفارغة. يوم سلَّمونى له تلا عليَّ تعاليمه العشرة:

لا تدقي مسمارا على حائط مهما حدث، التواصل لا يكون إلا همسا و لا تواصل إلا لضرورة قصوى، لا أسئلة، لا اعتراض، الطعام جيد ما لم أخبرك بالعكس، الأمور على ما يرام ما دامت في طي الكتمان، لا أفكار جديدة.. لا تفكير أصلاَ فالفكر عندى كما الذنب: لا يبلى.

هذا ما أتذكره من تعاليم هاديس.

كان يجيد امتطاء الكتمان، تماما كما يبرع في مضاجعة صمتي، فأنجب منه آلاف الكلمات الخديجة، يلملمها ليئدها جميعا، وأحيانا يحرقها حية ثم ينفخ رمادها في وجهي.

وحده يحيى كان كلمتى الناجية التى خبأتها في مأمن منه، كما فعلت رِيا حين خبأت زِيوس من أبيه كرونوس الذي اعتاد التهام أبنائه، فألقمته ريا حجراً بدلا منه.

أتذكر أننى حين قرأت هذه الأسطورة لم أتعجب من التهام كرونوس لأبنائه قدر تعجبي أنه لم يفرق بين ابنه والحجر، بين اللحم الطري والكتلة المصمتة. هذا طبعاً بجانب تعجبى من

إصرار ريا على إنجاب أطفال تعلم مسبقاً أنهم سيستقرون فى معدة كرونوس.

على كل حال لم أعد أتعجب من هذا ولا تلك، ابتلع هاديس ذريتى من الكلمات ولم أستطع التوقف عن ترديدها. فحين تصبح الأسطورة قيد التنفيذ، يتشابه البقر علينا، وإنا له لذابحون.

فقط يتملكنى رعب كبير أن يصير يحيى مثل هاديس، ورعب أكبر موازٍ له أن يصير مثلى أنا.. غريب.

أخاف أن تطرب سالومى لأنغام لحن قريتى فترقص للملك طلباً لرأس يحيى، أو تغويه عشتار وتنجب منه آلافٍ من هاديس. يأتى النادل بقهوتى، أتردد قليلاً قبل أن أسأله عن أحلام، يخبرنى أنها تأتى كل صباح هناك (مشيرا إلى الرصيف المنصف للطريق الفاصل بين المقهى والمسجد)؛ تقف عليه كأنها تعتلى منبراً، تظهر في هيئة "غريبة" مرتدية سترة رسمية وسروالاً رياضياً، تحمل بيدها بعض الأوراق تلقي منها محاضرة لموضوع يختلف يومياً، فتغزل بغرابتها حلقات من المارة حولها، وما هى إلا دقائق معدودة حتى يُهيَّأ لها أنهم تلاميذها، تظل تنهر بلادتهم بلا توقف، تطلب منهم الانصراف عنها، ينصرف بعضهم والبعض

الآخر يأبى عليه فضوله؛ تنحنى لتلتقط بعض الحجارة من حولها لتقذفهم بها، فيأتى بعض أفراد الأمن ليأخذوها، معتذرين مبررين حالتها بأنها نتيجة لصدمتها بعد أن فقدت ابنها، البعض يقول إن أباه اختطفه منها، وآخرون يقولون إنه نظراً لاقتراب الانتخابات؛ أودعته الشرطة (الأحداث) لأنه كأُمِّه له نشاط سياسي ويتمتع بشخصية قيادية قادرة على التأثير في الرأى العام رغم صغر سنه. يقولون إن ابنها هو يحيى مظهر الذي تتحدث عن اختفائه وسائل الإعلام.

هل قال يحيى مظهر؟ أشعر أننى سمعت هذا الاسم من قبل! لا لا بالتأكيد هو ليس يحيى مظهر ابنى، تشابه أسماء بكل تأكيد؛ يحيى موجود: موجود بالمنزل، تركتُه نائماً كالملاك في فراشه، لم أشأ حتى إيقاظه لأخبره عن خطة يومى وأسأله عن جدوله كعادتنا كل صباح، أشفقت عليه فتركته يرتاح فقد عاد منهكاً البارحة..

يحيى!! لا لا..

أفيق على صوت الغريبة.. أحلام تصرخ: يا يحيى! أين أنت يا يحيى!

سالومي أيتها العاهرة ابتعدي عن ابنى! كفاك رقصاً للملك.. كفاك إغراءً لهاديس.

ركضت باتجاهها، اقتربت منها، احتضنتها قبل أن أمسك وجهها بين كفيَّ، أدقق النظر في ملامحها. يا إلهى! أعرف تلك الملامح، إنها فتاة الشَّرَك!

من أتى بها هنا؟ أحلام فتاة الشَرَك؟ أحلام من أنتِ؟ أحلام أيتها الغريبة أجيبي.. أحلام.. بِرَبِّكِ من أنا؟

لم تعر تساؤلاتى انتباهاً، نظرت إلىَّ حانقة، دفعَتنى بعيداً عنها، ثم أعادت ترتيب أوراق محاضرتها، قبل أن تتلو منها أبيات درويش: دللت ابنى على قبري، أعجبه فنام؛ ولم يودعنى. بكَيت! لا لا لم أبك أنا.. بكت أحلام وكذلك بكت دائرة الوجوه المتحلقة حولنا، يبدو أننى كنت الشخص الوحيد الذي لم يبك هذا الصباح يا درويش!

تماماً كما أخبرني النادل، فقد توتَّرَت أحلام من دموعَ الحشد حولها؛ طلبت منهم الانصراف، لكنها لم تنحنِ لالتقاط الحجارة، يبدو أنها تعلمت الدرس، فانحنائتها تُشعرهم بالخطر، لذا فقد جمعت في جيبها الحجارة مسبقاً لتقذفهم بها بغتة.

لم أنصرف مع الوجوه المقذوفة، بقيت في مواجهتها على الرغم من القذائف المتطايرة حولى، لم تتمكن أحلام من اصطيادى على الرغم من مهارتها في قنص الوجوه؛ ربما توجَست من ثباتى خيفة، أو لعلها لاحظت الثقل المتدلى من جيب سروالى الرياضي؛ ففَهِمت أننى مثلها أحمل الحجارة تحسباً لهؤلاء الفضوليين. اقتربت أحلام منى، دَعتنى للجلوس، جَلسنا على حافة الرصيف، ظهرانا للمقهى، المسجد فى مواجهتنا، أشعلنا سيجارتينا فى الوقت نفسه، وبالمهارة ذاتها صنعنا دوائر الدخان، الدوائر تتسع حولنا حتى بدا لي أنها ابتلعتنا، أنتظر الخيط الذي سيهتك أفلاكها، فجأة أجد أمامي فتاة الشَرَك: توأمنا الثالث، تقطع بخيوطها دوائرنا، أفسحت لها مكاناً بجانبي، بينما تجلس سمِعت طقطقة الحجارة في جيبها، أعتقد أن أحلام لاحظت الصوت نفسه.

بدا ثلاثتنا كالقنافذ التى حكى عنها البرازيلي باولو كويلو فى روايته (الزانية)، تلك القنافذ التى عاشت فى عصر جليدي، حيث لا مصدر للدفء سوي أن تلتصق بعضها ببعض، إلا أن وخزات الأشواك على ظهورها كانت تؤلمها، فصار عليها أن تختار بين الموت متجمدة وبين التعايش مع آلام تجمعاتها، هكذا قرر ثلاثتنا: الحياة مع أشواكنا.

لوهلة أفكر في التخلص منهما : أحلام و فتاة الشَرَك؛ أشواكهما توخذنى، آلام اقترابهما صارت لا تطاق، فلا ألبث أن أتراجع؛ فلا مجال للحياة مع سواهما، ولن يحتمل غيرهما أشواكي. حلم تلك الليلة لا زال يتكئ على كتفي.. شام الصغيرة تظهر بشعرها الطويل، تلعب مع يحيى حول المسجد، على عتبة المسجد تجلس أمي تراقبهما بصمت حيادي، من بين ضلفتى باب المسجد النصف مغلقتين تظهر سالومي وهي ترقص، يصفق لها أَبِى ومَظهَر ،تنهض فتاة الشَرَك، تستدير لتلتقط يدى ويد أحلام وتسحبنا باتجاه المسجد قائلة: هلم إلى بيت الرب، أصرخ فيها: أى رب أيتها الغبية! ألا ترين سالومي ترقص هناك، وقد زُينت جدرانه بأموال هاديس، وسكنته الفئران.. فأر المسجد؟ ألا تذكرينه؟

نَزَعَت أحلام يدها ثم يدى من قبضة فتاة الشَرك، واقتربت لتحتضننى، وبكل هدوء قالت لفتاة الشَرَك: الرب لم يعد هنا يا عزيزتى؛ الرب هجر بيته.. ابحثى عن الإنسان داخلك؛ أخبرني الرب أنه يسكن هناك.. اذهبى وابحثى عنه.. عن رب لا يطرب للحن القرية.

التقطت أحلام يدي وبعد أن سجدنا شكراً لله، مضينا باتجاه يحيى وشام، حملناهما ومضينا بعيدا عن لحن القرية: قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى، قولوا لأبوها الدم غطى الفرشة.

الفهرس

خربشات انقطع عنها التيار ٧

فأر المسجد..... ١٧

توأمي حجر ٢٥

أمشير يهدأ أحيانا..... ٣٣

شـــام ٣٩

سنوبى و الطوق الأحمر ٤٥

حمى الماس ٥٣

نبتة أحلام ٦١

فتاة الشَرَك..... ٦٩

خطايا..... ٨٣

علم (بلدي) ٩١

غرفة (٦٠٨) ٩٩

لم يعد هنا! ١٠٩